الدفاع عن الماركسية

المجلة النظرية للأممية الشيوعية الثورية

العدد 49

1945

التحرير والثورة والخيانة

الدفاع عن الماركسية

المجلة النظرية الفصلية للأممية الشيوعية الثورية

© In Defence of Marxism
marxist.com
marxy.com
ماي/أيار 2025
العدد: 49

تمثال موسوليني مُحطمًا بعد سقوطه – روما
الغلاف: ميلانو، 26 أبريل 1945

ص 03: الحرب العالمية الثانية: تصحيح المغالطات
ص 08: إيطاليا 1943-1948: الثورة المغدورة
ص 24: تحرير فرنسا: الفرصة الضائعة
ص 32: 1945: تغير ميزان القوى في أوروبا
ص 48: نقطة تحول تاريخية تم تصويرها على الشاشة

هيئة التحرير
آلان وودز (رئيس التحرير)
روب سيويل
حميد علي زاده
فرانسيسكو ميرلي
دانييل مورلي
بين كوري
جوش هيلورود
جيمس كيبلي

التصميم:
خوسي موري-دين

جميع الصور غير المنسوبة لمصدر تقع ضمن الملكية العامة.
تُستخدم لقطات الأفلام بموجب مبدأ الاستخدام العادل.

للتواصل مع الأممية الشيوعية الثورية في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، يمكنكم مراسلتنا على العناوين الآتية:
البريد الإلكتروني لموقع ماركسي:
contact@marxy.com
بريد موقع الدفاع عن الماركسية:
contact@marxist.com
مجلة الدفاع عن الماركسية:
editor@marxist.com
In Defence of Marxism Ltd
49 Station Road, Polegate,
East Sussex, UK, BN26 6EA

جنود الجيش الأحمر يرفعون علم الاتحاد السوفييتي فوق مبنى الرايخستاغ في برلين – 2 ماي 1945

الحرب العالمية الثانية:
تصحيح المغالطات

افتتاحية بقلم: آلان وودز

يصادف الثامن من ماي هذا العام الذكرى الثمانين ليوم النصر في أوروبا، الذي انتهت فيه الحرب العالمية الثانية رسميا.

سوف يشهد ذلك الحدث التاريخي تنظيم احتفالاتٍ متنوعة في العديد من البلدان. إلا أن غيابا واضحا سيميز جميع تلك الفعاليات الرسمية: فكما جرت العادة، لن يتم توجيه الدعوة لروسيا.

وقد كان أبرز مثال على تلك المناورة الكلبية هو الاحتفال الأخير بتحرير أوشفيتز. ففي تغطيتها الأولية، أبلغتنا هيئة الإذاعة البريطانية (BBC) أن تحرير معسكر الموت النازي سيئ السمعة قد تم على يد "قوات حليفة" مجهولة. بدون أية إشارة إلى روسيا أو الاتحاد السوفياتي.

والحقيقة هي أن القوة التي حررت أوشفيتز، في 27 يناير 1945، كانت هي الجيش الأحمر السوفياتي. ومع ذلك فإنه لم يسمح لأي ممثل روسي بالحضور. وهذا يثبت لأي ذي عقل أن تلك الاحتفالات الرسمية المتبجحة لها علاقة بالسياسة المعاصرة أكثر بكثير مما لها مع أحداث ما قبل 80 عاما.

لقد تعرضنا، طيلة عقود، لوابل من الدعاية التي تقول إن هتلر قد هُزم بشكل رئيسي على يد الأمريكيين والبريطانيين. وشكلت الأفلام البطولية التي تصور مآثر الحلفاء الغربيين المزعومة المادة الأساسية في هوليوود منذ عام 1945.

والحقيقة هي أن مشاركة الأمريكيين والبريطانيين في الحرب في أوروبا لم تبدأ فعليا إلا مع إنزال نورماندي في صيف عام 1944.

أما قبل ذلك فقد تقلصت الحرب إلى صراعٍ هائل بين الاتحاد السوفياتي وبين ألمانيا النازية، المدعومة بكل القوى الإنتاجية الأوروبية. لقد كانت روسيا -أو بالأحرى الاتحاد السوفياتي- هي القوة الأكثر حسما في ذلك الصراع الملحمي. أما الأمريكيين والبريطانيين فقد بقوا، معظم فترة الحرب، مجرد متفرجين.

الاتحاد السوفياتي والحرب

كانت هناك محاولات عديدة لتصوير ستالين على أنه "قائد حربٍ عظيم". هذا خطأ فادح. لقد تسببت سياسات ستالين، في الواقع، في وضع الاتحاد السوفياتي تحت رحمة هتلر، مما كاد يؤدي إلى تدميره سنة 1941.

فبعد تخليه عن سياسة لينين الأممية الثورية، لجأ ستالين إلى سلسلة من المناورات مع الحكومات الأجنبية لتجنب التورط في حرب.

لكن يجب أن نضع في اعتبارنا أن ما يسمى بالديمقراطيات الغربية كانت هي نفسها منخرطة في المناورات، حيث كانت تسترضي هتلر باستمرار لتشجيعه على التوجه شرقا ومهاجمة الاتحاد السوفياتي.

وإدراكا منه لذلك، رد ستالين بتوقيع معاهدة عدم اعتداء مع ألمانيا النازية: معاهدة هتلر-ستالين. لقد كانت تلك، في الواقع، خطوة دفاعية من جانب روسيا، تهدف إلى تفادي الهجوم الألماني على الاتحاد السوفياتي.

من حيث المبدأ، قد تكون تلك المناورة الدبلوماسية مبررة لأغراض عملية قصيرة المدى. لكنها، وكما أثبتت الأحداث اللاحقة، لم توفر أي دفاع حقيقي طويل المدى للاتحاد السوفياتي.

وضع ستالين ثقة عمياء في مناورته "الذكية" مع هتلر لدرجة أنه تجاهل العديد من التقارير التي كانت تفيد بأن الألمان كانوا يستعدون للهجوم. ونتيجة لذلك، وفي لحظة الحقيقة، وجد الاتحاد السوفياتي نفسه أعزلا في مواجهة العدوان النازي.

وعندما عبر جنرالات هتلر عن معارضتهم لغزو روسيا، أجابهم هتلر بأن الجيش الأحمر لم يعد لديه جنرالات أكفاء بسبب تطهيرات ستالين.

وتباهى بأن كل ما هو مطلوب هو ركلة واحدة قوية، وسينهار ذلك البناء المتعفن بأكمله. وقد بدا هذا التنبؤ مبررا خلال الأشهر الأولى التي تلت الغزو الألماني، في صيف سنة 1941.

عندما أطلق هتلر غزوه، رفض ستالين تصديق الخبر. وخوفا من الاستفزاز، أمر الجيش بعدم المقاومة. كانت النتيجة كارثة عسكرية.

تم تدمير سلاح الجو السوفياتي على الأرض. وحوصر ملايين جنود الجيش الأحمر، الذين كانوا عاجزين عن أي مقاومة فعالة، وأسروا وأُرسلوا إلى معسكرات الموت، حيث لقي معظمهم حتفه.

كان القادة السوفييت في حالة من الفوضى. في البداية، أصيب ستالين بالذعر واختبأ. كانت أفعاله بمثابة فشل ذريع، وخيانة للاتحاد السوفياتي، الذي تعرض لخطر مميت بسبب سياسات ستالين الخاطئة.

والحقيقة هي أن انتصار العمال والفلاحين السوفييت في الحرب لم يكن بفضل نظام ستالين، بل رغما عنه.

الاتحاد السوفييتي يحشد قواه

لكن هتلر أخطأ في حساباته. إذ بعد أن أعمته نجاحاته السهلة في الغرب، قلل بشكل كبير من شأن الإمكانات العسكرية للاتحاد السوفياتي. فالاتحاد السوفياتي ورغم سياسات ستالين الإجرامية، تمكن من التعافي بسرعة وإعادة بناء قدراته الصناعية والعسكرية.

قام النازيون، المدعومين بجميع موارد أوروبا الهائلة، بتكثيف الإنتاج، وإنتاج أعداد هائلة من الدبابات والمدافع الهجومية والطائرات. لكن وبحلول عام 1943، تمكن الاتحاد السوفياتي من التفوق على الفيرماخت [الجيش الألماني] الجبار في الإنتاج والتسليح، وذلك من خلال تعبئة القوة الهائلة للاقتصاد المخطط.

كانت المعدات والأسلحة التي أنتجها الاتحاد السوفياتي من الطراز الأول، متفوقة على تلك التي استخدمها الألمان أو البريطانيون والأمريكيون. وهذا ما يفند الادعاء المتكرر بأن الاقتصاد المؤمم المخطط غير قادر على إنتاج سلع عالية الجودة.

لكن كان هناك سبب آخر للنجاح السوفياتي المذهل في الحرب، وهو الروح القتالية الجبارة للجيش الأحمر. كانت الطبقة العاملة السوفياتية تقاتل دفاعا عما تبقى من مكاسب ثورة أكتوبر.

رغم الجرائم البشعة التي ارتكبها ستالين والبيروقراطية، فقد مثل الاقتصاد المؤمم المخطط مكتسبا تاريخيا هائلا. وبالمقارنة مع همجية الفاشية -التي هي العصارة الخالصة للإمبريالية والرأسمالية الاحتكارية- كانت ذلك المكتسب يستحق خوض القتال والموت من أجله.

وهو ما قام به عمال الاتحاد السوفياتي بشكل بطولي عظيم. وهكذا فقد كانت الشجاعة الاستثنائية للطبقة العاملة السوفياتية وجيشها الأحمر هي العامل الحاسم في إلحاق الهزيمة بألمانيا النازية.

إن سبب حرص الغرب الشديد على تزوير السجل التاريخي وتجاهل الدور الحاسم للاتحاد السوفياتي واضح تماما. إن النصر المجيد للجيش الأحمر دليل على التفوق الهائل للاقتصاد المخطط المؤمم الذي مكن الاتحاد السوفياتي من النجاة من الكوارث الأولى وإعادة تنظيم قوى الإنتاج وراء جبال الأورال.

وبناء على تضحياتٍ جسيمة، أثبت بما لا يدع مجالا للشك تفوق علاقات الملكية الجديدة التي أرستها ثورة أكتوبر.

لقد منح وجود الاقتصاد المخطط المؤمم للاتحاد السوفياتي ميزةً هائلةً في الحرب.

لكن شعوب الاتحاد السوفياتي دفعت ثمنا باهظا للحرب، إذ سقط 27 مليون قتيل ودمار شامل لقوى الإنتاج.

المطالبة بجبهة ثانية

بعد الغزو الألماني، طالب السوفييت الحلفاء مرارا بفتح جبهة ثانية ضد ألمانيا. لكن تشرشل لم يكن في عجلة من أمره لتلبية مطالبهم. ولم يكن السبب وراء ذلك عسكريا بقدر ما كان سياسيا.

سياسات وتكتيكات الطبقة السائدة البريطانية والأمريكية في الحرب العالمية الثانية لم تكن على الإطلاق مدفوعة بحب الديمقراطية أو بكراهية الفاشية، كما تريد الدعاية الرسمية منا أن نصدق، بل بمصلحة طبقية خالصة.

عندما غزا هتلر الاتحاد السوفياتي سنة 1941، كانت الطبقة السائدة البريطانية تهنئ نفسها. فقد حسبوا أن الاتحاد السوفياتي سيهزم سريعا على يد ألمانيا. وفي تلك العملية ستضعف ألمانيا لدرجة أنه سيكون من الممكن التدخل وقتل عصفورين بحجر واحد.

لكن خطط كل من الدوائر الحاكمة في بريطانيا وأمريكا كانت خاطئة بشكل كامل. فالاتحاد السوفياتي بدلا من أن يُهزم على يد ألمانيا النازية، قاوم وألحق هزيمة ساحقة بجيوش هتلر.

لقد كانت مصالح الإمبرياليتين البريطانية والأمريكية مختلفة، بل ومتعارضة. وقد عكست الصراعات بين تشرشل وروزفلت حول مسألة يوم الإنزال ذلك التوتر.

لم تكن الإمبريالية الأمريكية تريد نجاح هتلر لأن ذلك كان سيخلق منافسا قويا للولايات المتحدة في أوروبا. ومن ناحية أخرى، كان من مصلحة الإمبريالية الأمريكية إضعاف بريطانيا وإمبراطوريتها، لأنها كانت تسعى إلى الحلول محلها باعتبارها قوة عالمية رائدة بعد هزيمة ألمانيا واليابان.

كانت واشنطن، ورغم أنها حليف رسمي للندن، تسعى دائما إلى استغلال الحرب لإضعاف مكانة بريطانيا في العالم، وخاصة لكسر سيطرتها على الهند وأفريقيا.

كان تشرشل يريد حصر حرب الحلفاء في البحر الأبيض المتوسط، وذلك جزئيا بهدف استمرار السيطرة على قناة السويس والطريق إلى الهند البريطانية؛ وجزئيا لأنه كان يفكر في غزو البلقان لعرقلة تقدم الجيش الأحمر هناك.

وبعبارة أخرى فقد استندت حساباته حصريا إلى المصالح الاستراتيجية للإمبريالية البريطانية وضرورة الدفاع عن الإمبراطورية البريطانية. وبالإضافة إلى ذلك فإنه لم يتخل تماما عن أمله في أن تستنزف كل من روسيا وألمانيا نفسيهما، مما سيؤدي إلى حالة من الجمود في الشرق.

لكن الأحداث في الشرق سارت في النهاية عكس مراده.

الجبهة الإيطالية

كان روزفلت يضغط من أجل فتح الجبهة الثانية في فرنسا. لكن تشرشل كان يلح باستمرار على التأجيل. وقد أدى ذلك

الجيش الأحمر في معركة ستالينغراد.
إلى اليمين: التقدّم نحو كالاتش، نوفمبر 1942
إلى اليسار: اشتباك داخل مصنع أكتوبر الأحمر، التاريخ غير معروف

إلى خلافات حادة بين لندن وواشنطن.

وفي الوقت الذي كان فيه الجيش الأحمر يخوض صراعا مميتا مع الفيرماخت في كورسك، كان البريطانيون والأمريكيون قد وصلوا شواطئ صقلية.

كان غزو إيطاليا في الواقع على هامش الجبهة الرئيسية للحرب. فقد استمر الجزء الأكبر من القتال مع ألمانيا النازية على الجبهة الشرقية، حيث كان الجيش الأحمر يواجه حوالي 200 فرقة عسكرية ألمانية. وفي المقابل كانت قوات بريطانيا العظمى والولايات المتحدة تواجه في صقلية فرقتين ألمانيتين فقط.

كان توسل موسوليني لهتلر بإرسال تعزيزات بدون جدوى. فقد كان كل اهتمام هتلر منصبا على الجبهة الشرقية. لكن زعم تشرشل بأن إيطاليا ستكون "المنطقة الرخوة في أوروبا" قد ثبت زيفه.

لقد أعطت مراوغات الجنرالات الأمريكيين الفاشلة لهتلر وقتا لتعزيز الجبهة الإيطالية، مما هيأ الظروف لمعركة مونتي كاسينو الدموية.

وازدادت العمليات في إيطاليا تعقيدا بسبب الأخبار غير السارة التي تفيد بأنه بعد الإطاحة بموسوليني، عام 1943، قد تستولي حركة المقاومة القوية بقيادة الشيوعيين الإيطاليين على السلطة.

فكان رد سلاح الجو الملكي البريطاني هو شن حملة قصف شرسة على الفور على مدن شمال إيطاليا، لمنع الشيوعيين الإيطاليين من الاستيلاء على السلطة.

كان البريطانيون والأمريكيون قلقين من إمكانية وصول الأنصار إلى السلطة قبل وصول قوات الحلفاء بوقت طويل. وكان رأيهم هو أنه من الأفضل ترك النازيين يقاتلون الأنصار، وبالتالي إضعاف قوات المقاومة.

وهكذا فبينما كان الحلفاء يقاتلون الألمان في إيطاليا، فقد كان هناك اتفاق ضمني وغير معلن بين الجانبين بشأن وقف العدو الطبقي المشترك، الذي في هذه الحالة هو الطبقة العاملة الإيطالية.

ولذلك فإنه حتى في ذروة الحرب، ظلت المسألة الطبقية -الخوف من الثورة- تجثم بشكل هائل على حسابات الطبقة السائدة. وقد تفاقم ذلك الوضع أكثر بعد توقف المواجهات.

في غضون ذلك كانت الأحداث قد اتخذت منعطفا دراماتيكيا على الجبهة الشرقية.

ستالينغراد وكورسك

بحلول نهاية يناير 1943، انهارت القوات الألمانية بعد معركة ضارية في ستالينغراد. ورغم سعار هتلر، الذي أمر الجيش السادس "بالقتال حتى الموت"، فقد استسلم الجنرال باولوس للجيش الأحمر.

حتى تشرشل، ذلك العدو المتعصب ضد الشيوعية، اضطر للاعتراف بأن الجيش الأحمر "مزق أحشاء الجيش الألماني" في ستالينغراد.

لكن خلف كلمات الثناء تلك، كانت القيادة البريطانية مصابة بخوف مميت، خوف كان يزداد قوة يوما بعد يوم، بل ساعة بعد ساعة.

خسر الألمان، خلال حملة ستالينغراد، ما مجموعه 500 ألف رجل، من بينهم 91 ألف أسير. تلك الهزيمة الساحقة تلاها حدث أكثر حسما في صيف عام 1943: معركة كورسك، التي كانت أكبر معركة دبابات في التاريخ، شاركت فيها نحو 10.900 دبابة، و2.600.000 جندي، و5.000 طائرة. ولعلها كانت الأكثر حسما في الحرب بأكملها.

مهد الانتصار السوفياتي في ستالينغراد وكورسك الطريق للتقدم الدراماتيكي للجيش الأحمر، مما أجبر البريطانيين والأمريكيين على التحرك.

التسابق على يوم الإنزال

اتضح للأمريكيين، منذ أواخر عام 1943، أن الاتحاد السوفياتي كان ينتصر في الحرب على الجبهة الشرقية، وأنهم إذا لم يتخذوا أي إجراء، فسيكتسح الجيش الأحمر أوروبا.

اضطر تشرشل على مضض للرضوخ لمطالب الرئيس الأمريكي الملحة. ورغم ذلك فقد تأخر فتح الجبهة الثانية حتى ربيع عام 1944.

لم يسارع الحلفاء إلى فتح الجبهة الثانية بغزو نورماندي إلا في صيف عام 1944، عندما كان الجيش الأحمر يتقدم بسرعة نحو برلين. لو أنهم لم يفعلوا ذلك، لكانوا سيلتقون الجيش الأحمر على شواطئ القناة الإنجليزية.

بلغ قلق الإمبرياليين حد وضع خطة جديدة، هي عملية رانكين، تتضمن إنزالا اضطراريا في ألمانيا في حال انهيارها أو استسلامها. وكانوا مصممين على الوصول إلى برلين قبل الجيش الأحمر.

قال روزفلت لقادة جيوشه: «يجب أن نصل إلى برلين. عندها يمكن للسوفييت الاستيلاء على الأراضي الواقعة شرقها. ويجب أن تحصل الولايات المتحدة على برلين»[1].

لكن الأمور سارت على نحو مختلف، فقد وصل الجيشان البريطاني والأمريكي إلى حدود ألمانيا، لكنهما توقفا هناك. ومن ناحية أخرى، كان تقدم الجيش الأحمر هو الأكثر إثارة للإعجاب في تاريخ الحروب.

اقترب الجيش الأحمر من برلين في 25 أبريل 1945.

نهاية الحرب

استمر هتلر حتى النهاية تقريبا في إصدار الأوامر لقوات غير موجودة، ونقل طائرات وفرق خيالية. لكن النهاية كانت قد حلت. فانتحر في 30 أبريل، ونقعت جثته بالبنزين وأُحرقت.

وبينما كانت النيران تلتهم جثته، كان دوي المدافع الروسية يسمع في قلب برلين. في فاتح ماي، ارتفع العلم السوفياتي فوق الرايخستاغ. وفي اليوم التالي، كانت القوات السوفياتية تسيطر بالكامل على العاصمة الألمانية. وبعد خمسة أيام، استسلمت ألمانيا.

كتب تشرشل إلى الحكومة السوفياتية أن إنجازات الجيش الأحمر تستحق "تصفيقا

لا حدود له"، وأن الأجيال القادمة تدين له «بكل إجلال كما ندين له نحن الذين شهدنا هذه الإنجازات العظيمة»[2].

لكن تلك الكلمات تفوح منها رائحة النفاق. ففي الواقع لم يكن تشرشل سعيدا على الإطلاق بانتصار الاتحاد السوفياتي. فقد بدأ فورا بالتخطيط للتحضير لحرب جديدة: ما سمي بالحرب الباردة ضد الاتحاد السوفياتي.

ليس من المعروف عموما أن هزيمة اليابان جاءت في الواقع نتيجة الضربة القاضية التي وجهها الاتحاد السوفياتي لجيشها في منشوريا. فبعد هزيمته للجيش الياباني في هجوم خاطف، اجتاح الجيش الأحمر منشوريا بسرعة، متجها مباشرة نحو اليابان.

في 06 غشت 1945، ألقت الولايات المتحدة لأول مرة في التاريخ قنبلة نووية على هيروشيما، تلتها بعد ثلاثة أيام قنبلة أخرى على ناغازاكي، مما أسفر عن مقتل ما يصل إلى 246 ألف انسان. لم يكن ذلك العمل موجها في الواقع ضد اليابان، التي كانت بالفعل راكعة وتلتمس السلام. بل كان القصد منه توجيه تحذير للاتحاد السوفياتي بعدم المضي قدما. لو لم يقم الأمريكيون بذلك، لما كان هناك ما يمنع الجيش الأحمر من احتلال اليابان نفسها.

كان ذلك أول مؤشر واضح على الصراع بين الإمبريالية الأمريكية والاتحاد السوفياتي، وهو الصراع الذي هيمن على العالم لعقود بعد عام 1945. كانت بذور الحرب الباردة تزرع.

النظام العالمي الجديد

قبل وفاته بفترة وجيزة، كان تروتسكي قد عبر عن رأي مفاده أن الاتحاد السوفياتي في ظل النظام الستاليني من غير المرجح أن ينجو من الحرب. لكن وكما سبق لنابليون أن أوضح فإن الحرب هي أكثر المعادلات تعقيدا.

لقد فند التاريخ تنبؤات تروتسكي. لكن حتى أعظم العباقرة لم يكن لهم أن يتنبأوا بالتطور الغريب للحرب العالمية الثانية. وقد تبين أن توقعات ستالين وهتلر وروزفلت وتشرشل جميعها كانت خاطئة تماما، وبنتائج كارثية.

إن النصر الباهر للاتحاد السوفياتي في الحرب غير الوضع بشكل كامل. وأدى إلى تقوية النظام الستاليني طيلة فترة كاملة.

وفي غضون ذلك اجتاحت موجة ثورية بقية أوروبا. كانت خيانة الستالينيين والإصلاحيين هي التي منعت الطبقة العاملة من الاستيلاء على السلطة في عدد من البلدان. وقد وفر ذلك الظروف السياسية اللازمة لانتعاش الرأسمالية بعد الحرب.

لكن العامل الحاسم كان هو اضطرار الإمبريالية الأمريكية للتدخل من أجل دعم الرأسمالية في أوروبا واليابان. فخوفا من شبح الشيوعية، اضطر الإمبرياليون الأمريكيون إلى دعم النظام الرأسمالي.

لم تتعرض الولايات المتحدة قط لمثل ذلك القصف الذي دمر اقتصادات أوروبا واليابان. وبحلول نهاية الحرب، كان ثلثا ذهب العالم موجودا في قاعدة فورت نوكس. وكان الدولار الأمريكي يساوي قيمة الذهب.

مكنت تلك القوة الاقتصادية الأمريكيين من تقديم مساعدات اقتصادية هائلة لأوروبا من خلال خطة مارشال، التي وفرت الظروف المادية اللازمة لانتعاش اقتصادي وإعادة التوازن الاجتماعي والسياسي.

في ظل تلك الظروف، سيطر عملاقان على العالم بأسره: الإمبريالية الأمريكية من جهة، والاتحاد السوفياتي الستاليني القوي من جهة أخرى. عرف ذلك باسم الحرب الباردة، واستمر لعقود.

ويتناول هذا العدد من مجلة "الدفاع عن الماركسية" تلك الأحداث من زوايا مختلفة.

والآن عادت عجلة التاريخ العظيمة للدوران من جديد. تواجه قوة الإمبريالية الأمريكية تحديا من جانب روسيا الصاعدة، التي تعافت من الانهيار الاقتصادي الذي عانت منه بعد عودة الرأسمالية في تسعينيات القرن الماضي، ومن جانب الاقتصاد الصناعي القوي للإمبريالية الصينية الصاعدة.

لقد تحطم التوازن الهش القديم. وبدأت تناقضات جديدة تبرز بسرعة. وقد انفتحت حقبة تاريخية جديدة عاصفة. ستكون هناك هزائم عديدة وانتكاسات عديدة، لكن وفي خضم العاصفة، ستتبلور الظروف الملائمة لتكثيف الصراع الطبقي. وعاجلا أم آجلا، في هذا البلد أو ذاك، ستوف تطرح الثورة الاشتراكية مجددا على جدول الأعمال.

1: *Foreign Relations of the United States Diplomatic Papers, The Conferences at Cairo and Teheran, 1943*, p. 254.
2: *Correspondence With Winston S Churchill and Clement R Atlee*, Progress Publishers, 1957, p. 307.

شاطئ أوماها، نورماندي - يونيو 1944

ميلانو، 26 أبريل 1945

إيطاليا 1943-1948: الثورة المغدورة

بين عامي 1943 و1948، كانت إيطاليا مسرحًا لحركة ثورية ملهمة لم تكتفِ بإسقاط الفاشية، بل هزّت أركان الحكم الرأسمالي ذاته. في هذه المقالة، يسلّط روبيرتو سارتّي الضوء على تلك الحركة، ويشرح كيف تعمّدت القيادة الستالينية للحزب الشيوعي الإيطالي خيانتها.

مع اندلاع الحرب العالمية الثانية في شتنبر 1939، وجدت الإمبريالية الإيطالية نفسها في حالة من عدم الاستعداد التام، لا عسكريا ولا اقتصاديا. لذلك فقد فضل نظام بينيتو موسوليني الفاشي ترك مهمة القتال لحليفه الألماني الأقوى، وامتنع عن دخول الحرب.

إلا أن السرعة التي اجتاحت بها الحرب الخاطفة الألمانية هولندا وبلجيكا وشمال فرنسا في ماي 1940، دفعت موسوليني إلى تغيير مفاجئ في موقفه. ولأنه اعتقد أن الحرب "ستنتهي بحلول شتنبر"، فقد تبجح قائلا:

«أنا بحاجة إلى بضعة آلاف من القتلى حتى أتمكن من حضور مؤتمر السلام باعتباري رجلا شارك في القتال».[1]

لقد اتضح أن ذلك كان خطأً فادحا في التقدير. فقد بلغ إجمالي عدد الضحايا الإيطاليين، بين سنتي 1940 و1943، ما يقرب من 500 ألف جندي. وكانت الحملة الروسية كارثية، فقد خسر الجيش الإيطالي 90 ألف رجل، من أصل نحو 220 ألف جندي، تم إرسالهم بتجهيزات سيئة للغاية للقتال في الشتاء الروسي القارس.

سرعان ما انهار الانضباط. وبعد الهزيمة الساحقة على الجبهة الشرقية، صاح جنود جبال الألب في القطارات التي كانت تعيد الجنود إلى أوطانهم: "فليسقط موسوليني، قاتل فيلق ألبيني" (فيلق من مشاة الجيش). وأصبح الفرار من الجيش أكثر انتشارا.

ولم يكن الوضع في الداخل أقل سوءا. فبين عامي 1939 و1942 تضاعفت الأسعار، لكن موسوليني أمر بتجميد الأجور، لأنه قال إن زيادتها من شأنه أن يشعل التضخم. وانخفضت الحصص التموينية إلى مستويات غير محتملة: ففي عام 1942 كان لا يحق للشخص الحصول سوى على 80 غراما فقط من لحم البقر أسبوعيا، وبيضة واحدة كل 15 يوما، وكيلوغرامين من المعكرونة، و1,8 كيلوغرام من الأرز شهريا.

سقوط موسوليني

بدأ السخط يتزايد. وأخيرا، بدأت الحركة العمالية تُظهر علامات الصحوة من جديد، بعد ما يقرب من عشرين عاما من الخمول تحت وطأة القمع الفاشي.

كانت أولى الإضرابات العمالية قد بدأت في النصف الثاني من عام 1942، وخاصة في تورينو وميلانو وجنوة. ولكن في الخامس من مارس 1943، امتد الإضراب، الذي بدأ في مصنع فيات في تورينو، كالنار في الهشيم، أولا إلى المصانع الأخرى في تورينو، ثم إلى مدن أخرى في الشمال. وسرعان ما شارك في الإضراب أكثر من 150 ألف عامل.

كانت مطالب العمال تتلخص في "192 ساعة عمل" (دفع أجر شهر إضافي في العام للتعويض عن ارتفاع تكاليف المعيشة)؛ السلم المتحرك للأجور؛ والإفراج عن السجناء السياسيين المناهضين للفاشية؛ وإزالة الميليشيات الفاشية من المصانع. وكان الناس يغنون نشيد "Bandiera Rossa" (الراية الحمراء) أثناء النضال.

وقد كتب الزعيم الفاشي، روبرتو فاريناتشي، في مذكرة إلى موسوليني:

«إذا أخبروك أن الحركة ذات طابع اقتصادي بحت، فإنهم يكذبون عليك. ففي الترامات، وفي المقاهي، وفي المسارح، وفي دور السينما، وفي الملاجئ، الجميع يهاجمون النظام».[2]

كانت محاولات القمع غير فعالة. وبحلول بداية أبريل، اضطرت الحكومة إلى الاستجابة لجميع المطالب الاقتصادية للعمال.

بدأت البرجوازية الإيطالية تخشى على الاستقرار والنظام، وبدأت تشكك في الارتباط الذي عقدته طيلة عشرين عاما مع الفاشية. وكما حدث خلال مرات عديدة في التاريخ، فقد حاولت الطبقة السائدة تفادي الثورة من الأسفل من خلال إجراء تغييرات من الأعلى.

وبالتالي فقد كان تحرك الطبقة العاملة هو الذي وجه الضربة القاضية للنظام الفاشي.

لم يلق هبوط "الحلفاء" الأنجلو-أمريكيين في صقلية، في أوائل يوليوز 1943، أية مقاومة تقريبا، وأوضح أن انهيار النظام وشيك. بعد فترة وجيزة، تم طرد موسوليني واعتقاله في اجتماع المجلس الأعلى للفاشية، في ليلة 24-25 يوليوز.

وفي "انقلاب القصر" الحقيقي ذاك، أعطى الملك فيكتور إيمانويل الثالث التفويض بتشكيل حكومة جديدة للمارشال بييترو بادوليو، الذي شغل، إلى حدود دجنبر 1940، منصب رئيس أركان الحرب في حكومة موسوليني، ولم يتورع عن استخدام الأسلحة الكيماوية أثناء غزو الحبشة (إثيوبيا) سنوات 1935-1937.

إزاحة موسوليني كانت هي الخطوة الأولى نحو إبرام السلام مع الحلفاء. اعتبرت أغلبية أقسام البرجوازية الإيطالية أنه من الضروري وضع نفسها تحت حماية القوات الأمريكية والبريطانية، حتى تتمكن بشكل أفضل من احتواء الصعود المقلق للصراع الطبقي. كانت الحكومة الجديدة في الواقع محاولة لحماية الرأسمالية الإيطالية من خلال الدكتاتورية العسكرية.

ولتقديم وهم التغيير، تم حل المؤسسات الأكثر إثارة للكراهية مثل الحزب الوطني الفاشي، والمجلس الأعظم للفاشية، وغرفة الشركات. لكن تم ضمان استمرارية جهاز الدولة: انتقلت السلطة إلى أيدي العسكريين؛ و"المحكمة الخاصة للجرائم السياسية" الفاشية لم تعمل سوى على تغيير اسمها فقط؛ واستمر جهاز "OVRA" (الشرطة السياسية) في العمل.

كان الهدف المباشر لحكومة بادوليو هو تجنب أي اضطراب "للنظام العام". فأصدرت نشرات صارمة تضمنت: حالة الحصار، وحظر التجول، والرقابة، وحظر إعادة تشكيل الأحزاب السياسية وإصدار المنشورات السياسية، وتوجيه تهمة "محاولة التمرد" للتجمعات التي تضم أكثر من ثلاثة أشخاص، وحظر ارتداء أي شارات لا تحمل العلم الإيطالي.

وفي يوم 26 يوليوز وحده، أسفر القمع الذي شنته قوات الكارابينيري (الشرطة العسكرية) والجيش عن مقتل 11 شخصا وإصابة نحو 80 واعتقال نحو 500 آخرين. لكن لم يكن لأي قمع، مهما كان قاسيا، أن يوقف المظاهرات الضخمة التي خرجت للاحتفال بسقوط الفاشية.

استيقاظ الجماهير

شرح المنظر الماركسي تيد غرانت بوضوح الطابع الثوري لتلك المظاهرات في مقال كتبه في ذلك الوقت، حيث قال:

«اندلعت الإضرابات الجماهيرية في جميع المدن الصناعية، ميلانو، وتورينو، وجنوة، إلخ، في غضون 24 ساعة. وشُلت السكك الحديدية في شمال إيطاليا بالكامل في غضون أيام قليلة. اقتحم العمال السجون وأطلقوا سراح السجناء السياسيين. ونهب العمال مقرات الفاشية في المدن الكبرى، واستولى العمال في ميلانو وغيرها على المطابع الفاشية. وفي اليوم التالي لاختفاء موسوليني أصبح أي شخص يرتدي شعار الفاشية في إيطاليا معرضا لخطر الإعدام شنقا. لقد تبخرت الفاشية بين عشية وضحاها. والمرسوم المتأخر الذي نص على حل الحزب الفاشي لم يكن أكثر من مجرد إقرار بحقيقة كانت قد تأكدت بالفعل بشكل لا رجعة فيه من طرف العمال والجنود أنفسهم. [...] وقد أدت محاولة استخدام الجنود ضد الحشود المتظاهرة في ميلانو إلى انتقال الجنود إلى جانب العمال».[3]

تغير ميزان القوى في المصانع. فقد أعاد العمال تشكيل اللجان الداخلية (لجان المصانع) وأعادوا انتخاب ممثليهم. وأعادوا بناء النقابات العمالية؛ وطردوا مفتشي المصانع ورؤساء العمال، الذين كان معظمهم أعضاء في الحزب الفاشي. أي أنهم باختصار، كانوا يعيدون اكتشاف التقاليد الثورية لـ "Biennio Rosso" (العامين الحمراوين) لعامي 1919 و1920.

وقد تميزت الأيام الخمسة والأربعين من وجود حكومة بادوليو بموجة كبيرة من الإضرابات في الشمال واحتلال الأراضي في

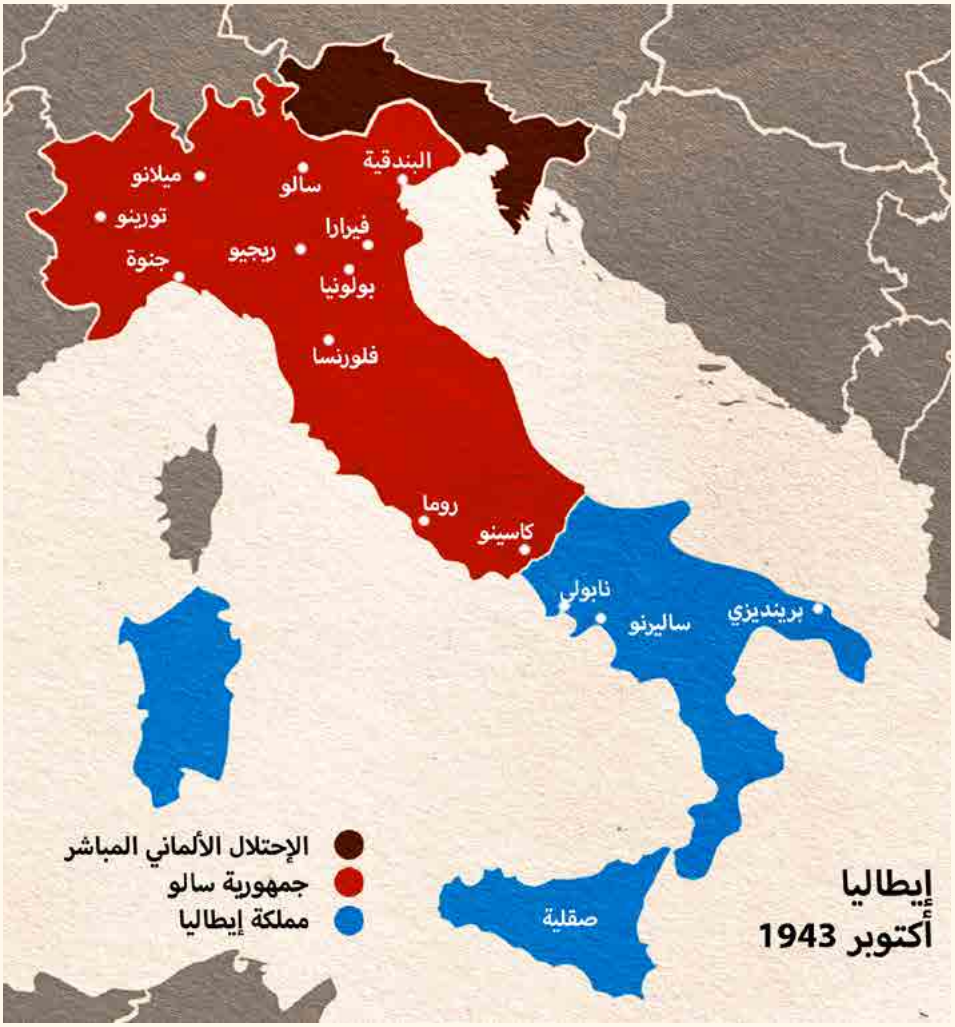

الجنوب. كان بادوليو يراقب عاجزا الحلفاء وهم يكثفون قصفهم للمدن، وكان الهدف الرئيسي من ذلك هو إرهاب الجماهير وإضعاف التحركات العمالية. وفي الوقت نفسه كان هتلر يعزز بشكل كبير تواجد جيشه في شبه الجزيرة، فضاعف أعداده بين يوليوز وشتنبر.

كان من الممكن أن تتم الإطاحة ببادوليو في تلك الفترة. لكن تحالفا من كل الأحزاب المناهضة للفاشية، من الليبراليين إلى الحزب الشيوعي الإيطالي، والذي سيصبح لاحقا لجنة التحرير الوطني، رفض تبني ذلك الموقف، بإصرار من الليبراليين والديمقراطيين المسيحيين. وكان السياسي الإصلاحي ومؤسس ذلك التحالف، إيفانوي بونومي، يعتزم تأجيل بداية المقاومة المسلحة ضد النازيين حتى وصول جيوش الحلفاء إلى شبه الجزيرة. وفي غضون ذلك، كان الحلفاء يعيدون بناء جهاز الدولة في صقلية، معتمدين على المافيا ورجال الدين الكاثوليك.

كان رفض قادة الحركة العمالية إعطاء التوجيه للنضال بمثابة فرصة لبادوليو لإحلال السلام مع الحلفاء. تم الاتفاق على الهدنة في 03 شتنبر 1943، لكنها بقيت سرية حتى الثامن منه. وبمجرد أن أعلنها الأمريكيون، بدأ النازيون عمليتهم للسيطرة على إيطاليا ونزع سلاح الجيش الإيطالي.

وفي اليوم التالي، فر الملك وولي عهده وبادوليو والقيادة العسكرية العليا بخزي إلى بريندیزي، على الساحل الجنوبي الشرقي، والتي كانت آنذاك تحت سيطرة الحلفاء. وفي غضون ذلك، ذابت أجهزة الدولة، بدءا بالجيش، مثلما يذوب الثلج تحت أشعة الشمس.

نسيت الطبقة السائدة بفعل خوفها من خطر الثورة البروليتارية، كل خطاباتها عن "الدفاع عن الوطن"، وتركت السيطرة على جزء كبير من إيطاليا للنازيين. وقد رفض كبار الضباط، في العديد من المدن، تسليم أسلحتهم للعمال للقتال ضد الجيش الألماني. وفي روما، اعتبروا استسلام المدينة للنازيين أهون الشرين.

تمكن النازيون من تحرير موسوليني، في منتصف شتنبر، ووضعوه على رأس حكومتهم العميلة: "الجمهورية الاجتماعية الايطالية"، الشهيرة باسم "جمهورية سالو"، نسبة للمدينة التي تأسست فيها. وبعد فترة أولية من الحيرة، استأنفت الجماهير نضالها، هذه المرة ضد كل من الاحتلال النازي وضد المتعاونين الإيطاليين معه.

كانت "Quattro giornate di Napoli" (الأيام الأربعة لنابولي)، بين 27 و30 شتنبر 1943، مثالا واضحا على الطاقات الكامنة للثورة البروليتارية. فقد حرر الشعب المسلح، بقيادة الطبقة العاملة، المدينة من جيش الاحتلال بانتفاضة عفوية، دون أي مساعدة من الحلفاء، ودون دعم من لجنة التحرير الوطني. كانت نابولي في الواقع أول مدينة أوروبية تنهض منتصرة ضد النازية-الفاشية. وأظهرت الطريق إلى الأمام للجماهير المضطهَدة في أوروبا.

منعطف سالرنو

شهد خريف عام 1943 تقسيم إيطاليا واحتلالها من قبل الحلفاء في الجنوب، والنازيين-الفاشيين في الشمال. كان الصراع الطبقي في تصاعد: استؤنفت الإضرابات في الشمال، وفي الجنوب انتشر احتلال الأراضي من قبل الفلاحين والعمال الزراعيين على نطاق واسع.

وفي الممارسة العملية، أصبح من الواضح أن النضال ضد الفاشية مرتبط ارتباطا وثيقا بالنضال ضد الرأسمالية. لكن الخط السياسي الذي اقترحه بالميرو تولياتي، الأمين العام للحزب الشيوعي الإيطالي آنذاك، لم يقدم أي شيء لتلبية المطالب الاجتماعية للجماهير.

لم تكن حكومة بادوليو تحظى بأي دعم بين العمال والفلاحين. ومع ذلك فقد أعلن تولياتي في العاشر من شتنبر من موسكو أنه إذا ما أخذت حكومة بادوليو «على عاتقها، علنا ودون تردد، راية الدفاع عن إيطاليا ضد عدوان هتلر الجبان [...]

غارة جوية للحلفاء على وسط إيطاليا، حوالي عام 1943

فإن الشعب سوف يدعمها».[4]

وبهذا عزز توليياتي الأوهام بخصوص الحكومة، التي كان هدفها الأساسي خنق الانتفاضة الثورية من الأسفل.

وفي وقت لاحق في الثاني عشر من يناير 1944، عمل توليياتي، وهو ما يزال في موسكو، على دفع خط الحزب الشيوعي الإيطالي إلى دعم حكومة "وحدة وطنية" إيطالية جديدة، من خلال التصريح بأن المطلوب هو:

«إنشاء حكومة وطنية ديمقراطية على الفور، وبمشاركة جميع الأحزاب المناهضة للفاشية».[5]

ووفقا لمذكرات جورجي ديميتروف، الأمين العام السابق للأممية الشيوعية، فقد تم عقد اجتماع بين توليياتي وستالين في موسكو في 03 مارس. أبلغ توليياتي ديميتروف لاحقا أن ستالين أمره بالدخول في حكومة بادوليو عند عودته إلى إيطاليا، وعدم المطالبة بالتنازل الفوري للملك عن العرش. وفي الواقع لقد اعترف الاتحاد السوفياتي رسميا بحكومة بادوليو في 10 مارس، استعدادا لتلك الخطوة.

تم التأكيد على هذا الموقف عندما وصل توليياتي إلى إيطاليا في نهاية مارس 1944، خلال اجتماع لكوادر الحزب الشيوعي الإيطالي في المناطق المحررة. أصبح هذا الحدث معروفا باسم "منعطف سالرنو" (سالرنو هي المدينة الواقعة جنوب نابولي حيث تم الإعلان عن الموقف).

"الجبهات الشعبية"

لم يكن الأمين العام للحزب الشيوعي الإيطالي هو الوحيد الذي أعلن عن ذلك التحول، بل كان ذلك ينسجم مع السياسة الستالينية المتمثلة في تشكيل "الجبهات الشعبية"، أي التحالفات مع أحزاب البرجوازية "الديمقراطية" المزعومة لوقف الفاشية.

كان انتصار هتلر في عام 1933، وسحق حركة العمال الألمان في أعقاب ذلك، قد أثار الذعر في موسكو، مما أدى إلى تحول دراماتيكي في سياسة الأممية الشيوعية.

وبحسب الموقف الذي تبناه المؤتمر السابع للأممية الشيوعية، في عام 1935، فقد تقرر تقسيم الثورة إلى مرحلتين منفصلتين بوضوح، الأولى هي مرحلة إلحاق الهزيمة بالفاشية وتأمين الديمقراطية الرأسمالية. وكان لابد من استكمال تلك المرحلة قبل أن يتسنى أي طرح لمطالب العمال الخاصة بالاشتراكية. وقد تم اعتبار أن أي محاولة من جانب البروليتاريا لتجاوز حدود الرأسمالية ستكون سابقة لأوانها ومميتة، وأن المرحلة الثانية، الاشتراكية، لن تبدأ إلا في وقت لاحق.

كان هذا الموقف مطابقا للسياسة التي انتهجها المناشفة فيما يتعلق بالثورة الروسية، والتي انتقدها لينين بشدة. كان تطبيق تلك السياسة من طرف الأممية الشيوعية سنوات الثلاثينات قد أدى إلى عواقب كارثية، كما أظهر مثال الجبهة الشعبية في إسبانيا. فقد بذل زعماء الحزب الشيوعي في إسبانيا كل ما في وسعهم لوقف الحركة الثورية للجماهير، باسم الحفاظ على تحالفهم مع "البرجوازية المناهضة للفاشية". وكانت النتيجة هي انتصار فرانكو في عام 1939، الشيء الذي زاد من عزل الاتحاد السوفياتي وجعل من اندلاع حرب عالمية أخرى أمرا حتميا.

لنفهم هذه السياسة الكارثية، من الأهمية بمكان أن نفهم أن قيادة الأممية الشيوعية كانت في ذلك الوقت قد تخلت بشكل كامل عن مهمة النضال من أجل الثورة العالمية، التي تأسست من أجلها، وتحولت بدلا من ذلك إلى أداة لتسهيل المناورات الدبلوماسية التي تقوم بها البيروقراطية الستالينية في موسكو.

وكان التحول إلى "الجبهة الشعبية" يعكس التحول في أولويات ستالين نحو تطبيع العلاقات مع البلدان الإمبريالية "الديمقراطية"، وهو ما كان يعني بالضرورة احتواء وقمع الثورات في مختلف أنحاء أوروبا.

كما سعت البيروقراطية السوفياتية إلى الدفاع عن سلطتها وامتيازاتها في الداخل، بأي وسيلة ضرورية. وعلى هذا فقد رأت في أي ثورة عمالية حقيقية خارج حدودها خطرا مميتا على بقائها. كان من الممكن أن تشكل أي ثورة عمالية سليمة نقطة مرجعية بديلة للحركة العمالية الأممية. وكان من الممكن أن تقدم مثالا للديمقراطية العمالية الحقيقية، في مواجهة النظام البيروقراطي القمعي في الاتحاد السوفياتي الذي اغتصب اسم الاشتراكية وثورة أكتوبر.

وقد استمرت هذه السياسة الغادرة طيلة فترة الحرب. وكدليل ملموس على حسن نيته تجاه حلفائه الإمبرياليين، قرر ستالين حل الأممية الشيوعية في 15 ماي 1943، دون حتى التظاهر بعقد مؤتمر.

وكان مؤتمر وزراء خارجية الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة وبريطانيا، الذي عقد في موسكو في نهاية أكتوبر 1943، قد ناقش، من بين أمور أخرى، الوضع في إيطاليا. وقد اتفقوا على إعلان مشترك بشأن النضال ضد النازية والفاشية، على أن تشارك في الحكومة الإيطالية «تلك القطاعات من الشعب الإيطالي التي عارضت الفاشية على الدوام».[6] وهكذا تم تطبيق سياسة التعاون الطبقي المتفق عليها بين ستالين وتوليياتي.

المطالب الديمقراطية

ما هو الموقف الذي كان ينبغي للشيوعيين أن يتبنوه في ظل الظروف المحيطة بإيطاليا في ذلك الوقت؟ هل كان عليهم في ظل احتلال النازيين-الفاشيين لمعظم إيطاليا، وقيام دكتاتورية بادوليو العسكرية في الجنوب، أن يتجاهلوا النضال من أجل المطالب الديمقراطية؟

كان ليون تروتسكي، في وقت مبكر من عام 1930، قد تناول مسألة طابع الثورة الإيطالية المستقبلية، والموقف الذي ينبغي على الشيوعيين أن يتخذوه فيما يتعلق بها، في رسالة موجهة إلى ثلاثة من الأعضاء القياديين في الحزب الشيوعي الإيطالي، الذين كانوا قد انفصلوا عن الستالينية. وأوضح أنه في حالة الإطاحة الثورية بالنظام الفاشي من قبل العمال على رأس الجماهير المضطهَدة، فإن الرأسماليين سوف يسعون إلى الحفاظ على حكمهم الطبقي من خلال إقامة دولة برلمانية، في حين سيحاولون قمع الحركة الثورية للطبقة العاملة باسم "الثورة الديمقراطية".

ومع ذلك، فإن حقيقة أن الطبقة السائدة وعملائها داخل الحركة العمالية سوف يحاولون استخدام المطالب الديمقراطية لخداع الجماهير لا تعني على الإطلاق أن الشيوعيين يجب أن يرفضوا كل الشعارات الديمقراطية. فكما أوضح تروتسكي:

«إذا اندلعت الأزمة الثورية [...] فإن جماهير الكادحين والعمال وكذلك الفلاحين سوف يتبعون مطالبهم الاقتصادية بشعارات ديمقراطية (مثل حرية التجمع والصحافة وتنظيم النقابات العمالية والتمثيل الديمقراطي في البرلمان والبلديات). فهل يعني هذا أن الحزب الشيوعي عليه أن يرفض تلك المطالب؟ كلا، على العكس من ذلك، سوف يتعين عليه أن يستثمر فيها أكثر ما يمكن من الجرأة والتصميم. ذلك أن الدكتاتورية البروليتارية لا يمكن فرضها على الجماهير الشعبية. ولا يمكن تحقيقها إلا من خلال خوض معركة -معركة شاملة- من أجل تلبية جميع المطالب والتطلعات والاحتياجات الانتقالية للجماهير، وعلى رأس الجماهير».[7]

في البرنامج الانتقالي، الذي هو أحد الوثائق الرئيسية للأممية الرابعة في مؤتمرها التأسيسي عام 1938، كتب تروتسكي صياغة أكثر تحديدا للمهام التي تنتظر الشيوعيين في البلدان الفاشية:

«إن الموجة الثورية في البلدان الفاشية بمجرد أن تنطلق، سوف تتحول على

أرشيف خاص: جونيو سالا

وحدة من فرقة غاريبالدي من بافيا، 25 أبريل 1945

لقطة من فيلم "Quattro giornate di Napoli" (1962) الذي يصوّر "الأيام الأربعة لنابولي" في عام 1943

الفور إلى موجة ضخمة ولن تتوقف تحت أي ظرف من الظروف عند [...] إحياء نوع من [النظام الديمقراطي البرجوازي]. [...]

بالطبع، هذا لا يعني أن الأممية الرابعة ترفض الشعارات الديمقراطية كوسيلة لتعبئة الجماهير ضد الفاشية. على العكس من ذلك، يمكن لمثل هذه الشعارات أن تلعب في لحظات معينة دورا مهما. لكن الصيغ الديمقراطية (حرية الصحافة، والحق في النقابات، وما إلى ذلك) تعني بالنسبة لنا شعارات عرضية أو طارئة في الحركة المستقلة للبروليتاريا وليس حبل المشنقة الديمقراطي الذي يعلقه عملاء البرجوازية حول عنق البروليتاريا (اسبانيا). وحالما تتخذ الحركة طابعا جماهيريا، فإن الشعارات الديمقراطية سوف تتشابك مع الشعارات الانتقالية؛ وربما نفترض أن لجان المصانع سوف تظهر قبل أن يهرع الروتينيون القدامى من مكاتبهم من أجل تنظيم النقابات العمالية؛ وسوف تغطي السوفييتات ألمانيا قبل أن تجتمع الجمعية التأسيسية الجديدة في فايمار. وينطبق نفس الشيء على إيطاليا وبقية البلدان الشمولية وشبه الشمولية».[8]

من الواضح أن الشيوعيين في إيطاليا، مع كونهم المناضلين الأكثر حزما ضد النازية-الفاشية، كانوا بحاجة إلى الحفاظ على استقلالهم الطبقي التام عن البرجوازية. كان عليهم بالطبع أن يدافعوا عن المطالب الديمقراطية الأساسية، مثل إلغاء النظام الملكي واستعادة كل الحريات الديمقراطية مثل الحق في التجمع والتظاهر والتنظيم في الأحزاب والنقابات العمالية. كما أنه كان عليهم أن يناضلوا في القرى من أجل الإصلاح الزراعي الحقيقي، ومصادرة الملكيات العقارية الكبرى وإعادة توزيع الأراضي.

إلا أنه كان ينبغي أن تقترن تلك المطالب الديمقراطية بمطالب تضع مسألة سلطة العمال في المقدمة، وتتوافق مع المرحلة الحقيقية للحركة، مثل مصادرة أملاك الرأسماليين، وسيطرة العمال على المصانع، وتشكيل المجالس العمالية كأجهزة للنضال.

وفي الواقع فإنه خلال الفترة من عام 1943 إلى أواخر الأربعينيات، تطورت حركة جماهيرية من لجان المصانع في المدن، في نفس الوقت الذي تطورت فيه موجة من احتلال الأراضي عبر ربوع البلد.

وبالتالي فإنه كان من الممكن لمثل هذا البرنامج أن يؤسس لتحالف بين الطبقة العاملة والطبقات المضطهَدة الأخرى في المجتمع الإيطالي، والفلاحين على وجه الخصوص، وكسبهم إلى النضال الثوري من أجل الاشتراكية.

لكن عوض ذلك، كان خط الحزب الشيوعي الإيطالي، بقيادة توليياتي، هو "الديمقراطية التقدمية"؛ ونظام الجبهة الشعبية (أي البرجوازية) الذي من المفترض أن يلبي مطالب الجماهير المضطهَدة، حيث تمثل الجمعية التأسيسية (أي البرلمان البرجوازي) "بداية تجديد عميق وجذري لحياة البلاد بأكملها".[9]

وفي إطار تلك السياسة، دخل الحزب الشيوعي الإيطالي، في الثاني والعشرين من أبريل 1944، في حكومة بادوليو الثانية، وهي حكومة ائتلافية ضمت الحزب الاشتراكي الإيطالي (الحزب الاشتراكي

الايطالي للوحدة البروليتارية PSIUP، كما كان يسمى آنذاك)، والليبراليين، والملكيين، والديمقراطيين المسيحيين، مع تولي توليياتي منصب نائب رئيس الوزراء.

تصرفت تلك الحكومة بطريقة حاسمة لتثبيت الرأسمالية في إيطاليا، بما في ذلك إعادة بناء الدولة البرجوازية. لم يتم تنفيذ أية عمليات تطهير جدية ضد الفاشيين، ولم تتم مقاضاة القيادات العسكرية العليا، وتم تعزيز الأجهزة القمعية للدولة، بدءا من الكارابينييري. لقد كانت منذ بدايتها حكومة ثورة مضادة برجوازية، بقناع "ديمقراطي".

انطلاق حركة الأنصار (Partisan)

بالتوازي مع الحكومة البرجوازية، تم إنشاء لجنة التحرير الوطني (CLN) مباشرة بعد الهدنة. وقد تم تشكيل هذا الجهاز من أجل قيادة تشكيلات الأنصار، مع هياكل جهوية وإقليمية.

هنا أيضا اتبع الحزب الشيوعي الإيطالي نموذج الجبهة الشعبية. فكانت الأحزاب التي شكلت اللجنة -الحزب الشيوعي الإيطالي، والحزب الاشتراكي الإيطالي، والديمقراطي المسيحي، وثلاثة أحزاب صغيرة برجوازية وبرجوازية صغيرة أخرى- تتمتع بتمثيل متساو. وقد أدى ذلك إلى تضخيم وزن الأحزاب البرجوازية إلى حد كبير، والتي كانت، لولا ذلك، تشكل أقلية ضئيلة في ألوية الأنصار وفي المجتمع ككل. وكانت آلية اتخاذ القرار التي تقوم على الإجماع توفر لزعماء الحزب الشيوعي الإيطالي والحزب الاشتراكي الإيطالي العذر للتخلي عن أي عمل يعتبره البرجوازيون "مبالغا في الجرأة".

ولذلك فإن لجنة التحرير الوطني لم تكن على الإطلاق جنينا للسوفييتات المستقبلية؛ بل كانت بدلا من ذلك أداة لكبح جماح الجماهير الحزبية. لكن هذا يثير التساؤل حول كيف تمكن الحزب الشيوعي الإيطالي من لعب ذلك الدور المضاد للثورة.

في ظل الفاشية، كان الحزب الشيوعي الإيطالي قادرا، بفضل جهازه السري، على الصمود بشكل أكبر من الحزب الاشتراكي. وبعد سقوط موسوليني، أصبح الحزب الرئيسي داخل الطبقة العاملة. وكانت شعبيته تستند إلى حقيقة مفادها أنه كان يعتبر الحزب الذي سقط وهو يقاتل صعود الفاشيين، فضلا عن اعتباره الممثل المباشر للاتحاد السوفياتي.

كانت الغالبية العظمى من مناضليه قد استيقظوا لتوهم على الحياة السياسية. وتشير التقديرات إلى أنه في بداية عام 1943، كان لدى الحزب الشيوعي الإيطالي حوالي 6.000 عضو. وفي عام 1944، ارتفع بسرعة إلى 501.000، وفي عام 1945 وصل العدد إلى 1.770.000.

كان هؤلاء العمال والشباب مشبعين بالروح الثورية، لكنهم كانوا يمتلكون خبرة قليلة جدا.

وفي مواجهة الانتقادات والانفجارات الثورية من القواعد، كانت قيادة الحزب الشيوعي الإيطالي تتخذ أحيانا إجراءات صارمة ضد الأعضاء الذين كانوا يعبرون عن آراء مختلفة، وتتهمهم بـ"العصبوية" أو "التروتسكية". ركزت القيادة، في أغلب الأحيان، على خداع القواعد الشعبية فيما يتعلق بآفاق ومهام الثورة.

وقد استُخدمت "نظرية المرحلتين" المنشفية لهذا الغرض، بالقول إن التسويات التي تجري اليوم ضرورية في ضوء ما قد يحدث غدا، حيث سوف "نحاسب" الرأسماليين والفاشيين.

وفي الوقت نفسه، تم الترويج لأسطورة "ازدواجية" توليياتي. وتم تقديم أي تصرفات أو سلوكيات انتهازية من جانب قيادة الحزب الشيوعي الإيطالي بكونها مناورات ذكية. وزعموا أن الخط الرسمي المعتدل معد لخداع الخصوم، في حين أن الحزب في الواقع يستعد، تحت ذلك الغطاء، للاستيلاء على السلطة بمجرد أن يسمح الوضع بذلك.

وكانت هذه "الازدواجية"، التي لم تكن موجهة لخداع الطبقة السائدة بل لخداع العمال والأنصار، تتمتع بميزة عدم معارضة تطلعات الجماهير بشكل مباشر صريح، وبالتالي تجنب تحويل شكوكها بشأن خط الحزب الشيوعي الإيطالي إلى معارضة يسارية واعية.

معارضة خط الحزب الشيوعي الإيطالي

بالإضافة إلى الشكوك والانتقادات داخل الحزب، كانت هناك أيضا منظمات وحركات خارج الحزب الشيوعي الإيطالي تعارض خط توليياتي.

كان حظر الحزب الشيوعي الإيطالي في عام 1926 سببا في إحداث قطيعة إلى حد ما في تاريخ الحركة الشيوعية في إيطاليا. كان العديد من المناضلين الذين قاوموا طوال سنوات الفاشية المظلمة، وغيرهم ممن جاءوا إلى الشيوعية في تلك السنوات نفسها، لا يعرفون سوى القليل، أو لا شيء، عن القطيعة بين ستالين وتروتسكي، أو التصفية الجسدية التي تعرض لها الحرس القديم البلشفي بأكمله. ومع دخولهم حلبة النضال السياسي، أعاد العديد منهم اكتشاف أفكار مؤسسي الحزب، مثل غرامشي وبورديغا، وموقفهم الطبقي الحازم.

انتقدت تلك الفئات خط الحزب الشيوعي الإيطالي بشأن تعاونه الطبقي، وقبوله بالنظام الملكي، وافتقاره للموقف الأممي. وربط العديد منهم بشكل صحيح بين النضال ضد النازية-الفاشية وبين المنظور الثوري لتغيير المجتمع.

لم تكن تلك المجموعات مجرد مجموعات تافهة. فقد كانت الحركة الشيوعية الإيطالية التي تتخذ من روما مقرا لها، والمعروفة باسم صحيفتها "*Ban-diera Rossa*" (العلم الأحمر)، مماثلة في الحجم للحزب الشيوعي الإيطالي خلال فترة النضال السري، وفي عام 1944 كان عدد أعضائها ما يزال خمسة آلاف. أما حركة "Stella Rossa" (النجمة الحمراء) في تورينو، فقد كان عدد أعضائها نحو ألفي عضو. أما الفصيل اليساري من الشيوعيين والاشتراكيين الإيطاليين، الذي كان من بين

مؤسسيه أيضا القادة الرئيسيين لنقابة CGL Rossa (النقابة الحمراء)، فقد بلغ عدد أعضائه، في صيف عام 1944، نحو عشرة آلاف مناضل في مختلف أنحاء الجنوب، بمن في ذلك نحو ألف مناضل في نابولي وحدها.

لكن النهج العصبوي لذلك الفصيل اليساري تسبب في عرقلة نموه. فقد أدى إنكاره لجدوى الشعارات الديمقراطية، على سبيل المثال، إلى عزله عن شريحة واسعة من الجماهير، التي كانت تستيقظ على النضال الثوري من خلال النضال ضد الفاشية.

بينما عانت المنظمات الأخرى المتواجدة على يسار الحزب الشيوعي الإيطالي من افتقارها إلى فهم طبيعة الاتحاد السوفياتي. فبالنسبة لها كان ستالين ينفذ سياسة لينين؛ أما توليياتي وبقية زعماء الحزب الشيوعي الإيطالي الآخرين فقد كانوا يخونون ببساطة توجيهات الاتحاد السوفياتي.

وعندما تبين بما لا يدع مجالا للشك أن الخط السياسي للحزب الشيوعي الإيطالي كان متوافقا تماما مع سياسة موسكو، وجدت العديد من تلك المجموعات نفسها في مأزق مسدود. كانت سلطة توليياتي مستمدة من الاتحاد السوفياتي والجيش الأحمر الذي كان يعمل على تفكيك النازية في أوروبا، وبالتالي كانت لا تقبل الشك بين العمال والشباب الإيطاليين.

وكانت المشكلة الأساسية هي أن "باندييرا روسا" و"ستيلا روسا" والكتلة اليسارية وغيرها، لم يكن لديها حقا إطار نظري بديل عن الستالينية. ومن ناحية أخرى فقد كان المناضلون الذين يعتبرون أنفسهم تروتسكيين قِلة ومعزولين.

وهكذا فقد ظهرت الستالينية، لفترة تاريخية طويلة، باعتبارها التيار السياسي المسيطر داخل الحركة العمالية الإيطالية.

مارس 1944: الإضراب العام

مع إضرابات مارس 1943، انهار السد الذي كان يكبح جماح الطبقة العاملة أخيرا، واستمرت التحركات العمالية دون هوادة منذ ذلك الحين. لكن استئناف الإنتاج تحت الاحتلال الألماني في خريف عام 1943، بهدف دعم جهود الحرب التي بذلها الرايخ، أثار مرحلة جديدة من النضالات.

بعد أسابيع من التحريض والاجتماعات السرية، نشرت لجنة التحريض السرية في بيدمونت ولومباردي وليغوريا -وهي هيئة أسسها الحزب الشيوعي الإيطالي والحزب الاشتراكي الإيطالي- بيانا يدعو إلى إضراب عام.

في الساعة العاشرة صباحا من يوم 01 مارس 1944، وتخليدا للذكرى السنوية لإضرابات عام 1943، أضرب 300 ألف عامل في ميلانو و50 ألف عامل في تورينو. ولم يقتصر الأمر على عمال الصناعة؛ بل انضم إلى الإضراب كذلك عمال النقل وعمال الطباعة. وانتشر الإضراب بسرعة إلى العديد من المدن الأخرى في شمال إيطاليا.

كان أكبر إضراب يتم تنظيمه في أوروبا المحتلة من النازيين. ويقدر عدد العمال الذين أضربوا بما بين 500 ألف ومليون عامل، متجاهلين سياسة الإغلاق التي نفذها أرباب العمل والتهديدات التي أطلقتها السلطات النازية-الفاشية.

كان برنامج الإضراب يحمل محتوى سياسيا واضحا: كان الشعار الرئيسي هو الإطاحة بالنازية-الفاشية. لكن الجماهير أدركت أيضا أن المسؤولية عن الحرب والبؤس لا تقع على عاتق الفاشية وحدها، بل وأيضا على عاتق الرأسماليين، الذين اختاروا الاعتماد على حراب النازية للحفاظ على السلام الاجتماعي داخل المصانع.

وفي خضم النضال طرح العمال بجرأة مطالبهم الطبقية الخاصة، حتى أنهم طرحوا مسألة الرقابة العمالية. وعلى سبيل المثال فقد احتوت إحدى النشرات، التي وزعتها لجنة الإضراب في ميلانو خلال الأيام التي سبقت الإضراب، على المطالب التالية:

«أجور تغطي بالكامل تكاليف المعيشة؛ تعليق جميع عمليات التسريح وتقليص ساعات العمل إلى أقل من 40 ساعة في الأسبوع؛ إطلاق سراح جميع الأنصار، سواء كانوا عمالا أم لا [...]؛ يجب أن يتوقف ترحيل العمال إلى ألمانيا. [...] دعونا ننشئ لجان إضراب في أماكن العمل! دعونا ننشئ فرق دفاع عمالية ضد العنف الفاشي-النازي!».[10]

تنظيم الإضراب العام تحت الاحتلال العسكري أثار حتما مسألة الانتفاضة والحاجة إلى تسليح الطبقة العاملة. لقد قرر العمال الإضراب وهم مقتنعون بأن حركة الأنصار سوف تدعم ذلك الإجراء. إلا أن تدخل مجموعات العمل الوطني (تشكيلات الأنصار التي كانت تنشط في المدن) كان محدودا للغاية.

غياب الدعم المسلح منع المضربين، باستثناء حالات قليلة، من النزول إلى الشوارع وتحدي سلطات الاحتلال بشكل علني. وبسبب ذلك سيطر الإحباط على العمال وانتهى الإضراب في الثامن من مارس.

الصراع الطبقي وحرب الأنصار

لم يكن فشل مجموعات الأنصار المسلحة في دعم الإضراب مصادفة. فقد أصر ائتلاف لجنة التحرير الوطني، بما في ذلك قيادة الحزب الشيوعي الإيطالي، على أن المقاومة ينبغي ألا تكون ذات طابع طبقي، بل ينبغي أن تكون ذات طابع تحرر وطني حصري.

وبالتالي فإن مركز الصراع كان ينتقل من المدن إلى الجبال. وكان هذا يعني نقل الكوادر والمناضلين الحزبيين إلى الأرياف، أو من المصانع إلى التشكيلات العسكرية.

وفي المدن، كان عمل الأنصار يعتمد حصريا على التخريب والهجمات الفردية. كان على الأنصار أن يعملوا في سرية تامة، وبالتالي كانوا معزولين عن الحركة الجماهيرية والإضرابات والمظاهرات.

لم يكن هذا الابتعاد عن المدن مقبولا دائما لدى بعض أفضل كوادر الحزب الشيوعي الإيطالي على الأرض، كما يمكن ملاحظة ذلك من تقرير بتاريخ 27 نوفمبر 1943 من قبل أرتورو كولومبي، الذي كان

يعمل في تورينو:

«قوانا السياسية صغيرة بشكل لا يصدق: هناك نقص في الكوادر المتوسطة وقد ضعفت القيادة [المحلية] من خلال إبعاد أفضل الرفاق عن تورينو وتكريس الباقي للعمل العسكري. ليس لدينا سوى حفنة من الرجال الذين هم، من بين أمور أخرى، جدد تماما أو كانوا مفقودين لسنوات عديدة. لم يسبق لأحد منا أن قاد إضرابات كبيرة، أو حرر صحفا، وما إلى ذلك. أنتم تقصفوننا بالتحريض على إعطاء كل شيء للعمل العسكري، واليوم ندرك أنه كان ينبغي لنا أن نعطي أقل قليلا، لأن إمكانية الترويج للإضرابات السياسية الجماهيرية والإضراب العام، وما إلى ذلك، تُظهر كيف أن التعبئة السياسية للجماهير في مركز كبير لها أهمية هائلة للنضال العام».[11]

كان النضال المسلح للأنصار ضروريا للغاية في ظل الاحتلال العسكري. لكن السؤال الذي يجب طرحه هو: ما هي الاستراتيجية اللازمة لتوجيه النضال العسكري الشامل؟

كان المطلوب هو ربط نضال العمال بتشكيلات الأنصار العاملة في الأرياف والجبال. وكان من الضروري الاعتراف بالطبقة العاملة باعتبارها القوة القيادية في النضال ضد الفاشية، نظرا لدورها في الإنتاج.

كان من الواجب أن تتحول لجان التحريض السرية إلى مجالس عمالية جنينية، يمكن من خلالها للطبقة العاملة قيادة الإضرابات وتنظيم فيالق عمالية مسلحة وتولي إدارة الإنتاج، بهدف الاستيلاء على السلطة السياسية.

كانت إمكانات بناء تلك الميليشيات العمالية هائلة. في الأسابيع التي سبقت تحرير روما، دعت "باندیرا روسا" إلى إنشاء "جيش أحمر" في العاصمة. وقد استجاب لتلك الدعوة أكثر من 40 ألف "رفيق من كل التيارات الشيوعية"، بمن في ذلك بعض كبار ضباط الجيش، وتم تشكيل ما يصل إلى 34 فرقة. لكن الحزب الشيوعي الإيطالي، الذي روعه هذا السيناريو، مارس ضغوطا سياسية ومادية غير مسبوقة على قادة "باندیرا روسا"، بما في ذلك تهديدهم بقطع الإمدادات من الحلفاء. وقد نجح ذلك في إجبارهم على الامتناع عن تنفيذ المبادرة.

"التحرر الوطني" في مواجهة الحرب الطبقية

قدم ربيع عام 1944 زخما مهما لنضال الأنصار. كان القمع الذي أعقب إضراب مارس 1944 حاسما في تعزيز صفوف الأنصار، إذ أجبر العديد من العمال على الانضمام إلى ألوية الأنصار للهروب من الترحيل إلى ألمانيا.

كما أن "Bando Graziani" (التجنيد العسكري الإجباري للشباب الإيطاليين في الجيش الجديد للنظام الفاشي المعاد تشكيله في الشمال)، كان بدوره عاملا رئيسيا. كان كل من لم يستجب لدعوة الفاشيين إلى حمل السلاح سيواجه عقوبة الإعدام. ومن بين 180 ألف جندي الذين تم تجنيدهم، لم يلتحق سوى بضع عشرات آلاف. أما الباقون فقد فروا، وفر كثيرون منهم للانضمام إلى ألوية الأنصار الأولى.

وهكذا فقد تزايد عدد أعضاء ميليشيات الأنصار إلى ما يقرب من 100 ألف مقاتل بحلول صيف عام 1944. كانت التركيبة الاجتماعية من البروليتاريا في الغالب، وكان متوسط الأعمار صغيرا للغاية. وكانت فكرة أن البلد على وشك تمرد مسلح منتشرة على نطاق واسع.

كانت "Garibaldi brigades" ("ألوية غاريبالدي") التي يقودها الشيوعيون هي الأكثر عددا، وشكلت ما يقرب من 50% من قوات الأنصار. وكان التجذر نحو اليسار واضحا بشكل متزايد.

عمال مضربون في أحد المصانع في سيستو سان جيوفاني، على مشارف ميلانو، 1944

مجزرة ساحة لوريتو، 10 أغسطس 1944: قتل النازيون والفاشيون 15 من الأنصار وتركوا جثثهم معروضة للعموم

في ذلك الوقت استخدمت قيادة الحزب الشيوعي الإيطالي كل سلطتها لاحتواء التعبئة. وقد كان توليياتي صريحا للغاية في إحدى توجيهاته عندما أوصى «بأن نتذكر دائما أن الانتفاضة التي نريدها لا تهدف إلى فرض التحولات الاجتماعية والسياسية بالمعنى الاشتراكي والشيوعي، بل تهدف إلى **التحرر الوطني** وتدمير الفاشية».[12] (التشديد من عندنا)

ومع ذلك فقد كافح الحزب الشيوعي الإيطالي لاحتواء التجذر. وكما كتب المؤرخ كلاوديو بافوني، فقد كان اللون الأحمر حاضرا على نطاق واسع "في رمزية أغطية الرأس والقمصان والنجوم والمطرقة والمنجل والتحية بالقبضات والأغاني".

لكن هذا لم يكن يوافق ذوق قيادة ألوية غاريبالدي في فالتيلينا، التي أمرت بأنه:

«دعونا نزيل النجوم الحمراء على الفور. لا يجوز ارتداء أية شارة باستثناء الشارة ذات الألوان الثلاثة. وينطبق نفس الشيء على الأغاني التي ينبغي ألا تكون أغاني حزبية، بل فقط أغاني وطنية».[13]

لقد كانت لتبعية لجنة التحرير الوطني للأحزاب البرجوازية عواقب عملية مهمة، كان أحدها فشل الأنصار في تحرير روما. في الرابع والخامس من يونيو 1944، تم تحرير روما بالفعل بواسطة قوات الحلفاء. وقد كانت هي المدينة الإيطالية الكبرى الوحيدة التي لم يحررها الأنصار.

كان الدافع واضحا. لأنه لو تم تحرير عاصمة البلاد بواسطة الشباب والعمال المسلحين، فمن كان بإمكانه إيقاف الانتفاضة الشعبية في جميع أنحاء البلد الأخرى؟ وهكذا فقد عارض الديمقراطيون المسيحيون والليبراليون، بناء على نصيحة الحلفاء والفاتيكان، خطط الحزب الشيوعي الإيطالي والحزب الاشتراكي الإيطالي لتحرير "المدينة الخالدة" على يد الأنصار.

لكن وعلى الرغم من الخط التصالحي الذي تبنته القيادة العليا، فإن الضغط نحو الانتفاضة المسلحة كان يتصاعد من الأسفل. فلو أطلق الحزب الشيوعي الإيطالي نداء الانتفاضة، بين صيف وخريف عام 1944، لكان أعضاء ألوية الأنصار، البالغ عددهم 100 ألف مقاتل في الجبال والأرياف، قد انضم إليهم ملايين العمال الذين كانوا ينتظرون الإشارة من الحزب.

لم تكن المقاومة المسلحة للنازية-الفاشية ظاهرة معزولة في إيطاليا فقط. فقد كانت هناك حركات أنصار جماهيرية في اليونان وفرنسا وبلجيكا وهولندا. وفي غضون ذلك الوقت، كان أنصار تيتو قد حرروا بلغراد في 20 أكتوبر 1944. وكانت تلك هي الخطوة الأولى نحو تحرير يوغوسلافيا بأكملها، وهو ما تحقق أخيرا في الأول من مارس 1945.

كان الجيش الألماني يتراجع إلى الوراء على جميع الجبهات، وكانت هناك حوادث فرار لا حصر لها. لكن في تلك اللحظة، وبينما الحركة على أعتاب النصر، تراجعت جيوش الحلفاء فجأة، وقطعت الطريق على الأنصار في الشمال.

في التاسع من أكتوبر 1944، أعاد ستالين طمأنة تشرشل في موسكو، بأن إيطاليا ستبقى في فلك الغرب. وبالتالي لم تعد هناك حاجة للحلفاء لكي يتقدموا بسرعة، من أجل قمع أي تحركات ثورية من جانب الأنصار. فالحلفاء الذين كانوا على ثقة من أن حليفهم ستالين سيمنع الحركة، حولوا انتباههم بدلا من ذلك نحو تعبيد الطريق لاستقرار الحكم البرجوازي.

لقد تخلى الحلفاء، في جوهر الأمر، عن الأنصار للنازيين. وفي خريف وشتاء عام 1944، أطلق النازيون-الفاشيون أعنف أعمالهم الانتقامية. ومن بين تلك المذابح التي وقعت في حق المدنيين في مارزابوتو، في جبال الأبينيني في بولونيا، والتي راح ضحيتها ما يصل إلى 1830 قتيلا، وفي سانت آنا دي ستازيما، في شمال توسكانا، والتي راح ضحيتها 560 قتيلا.

وفي غضون ذلك وقعت قيادة لجنة التحرير الوطني، في دجنبر 1944، على

استسلامها الكامل للإمبريالية. ضمنت الاتفاقية، التي اقترحتها قيادة الحلفاء ووقعها أيضا باجيتا نيابة عن الحزب الشيوعي الإيطالي، نزع سلاح الأنصار بالكامل عند الحاجة إلى ذلك. كما ضمنت استبعاد زعماء الأحزاب المناهضة للفاشية من القيادة العسكرية للجنة التحرير الوطني، واستبدالهم بكادورنا، وهو جنرال فاشي سابق.

25 أبريل 1945: يوم التحرير

حاول الحلفاء تكرار استراتيجية تحرير روما في جميع أنحاء إيطاليا، لكن الضغط من أسفل، من الطبقة العاملة والفلاحين، كان كبيرا للغاية.

وبحلول ربيع عام 1945، بلغ عدد مقاتلي الأنصار 240 ألفا. وبسبب خوفه من أن يتعرض للإغراق بحماسة الجماهير الثورية، حاول الحزب الشيوعي الإيطالي احتواء الانتفاضة ضمن مسارات محددة سلفا، ولذلك أصدر الدعوة إلى انطلاق الانتفاضة.

أصدرت لجنة التحرير الوطني برقية مشفرة تحمل الأمر، الذي اشتهرت فيما بعد بـ: "Aldo dice 26x1" (ألدو يقول 26x1). كان من المفترض أن تكون "الساعة X" للانتفاضة هي الواحدة صباحا في السادس والعشرين من أبريل. ولكن "في الممارسة العملية"، كما كتب بييترو سيكيا، أحد قادة الحزب الشيوعي الإيطالي في القيادة العليا لألوية غاريبالدي، "انتفض الأنصار قبل الوقت المحدد في كل مكان تقريبا".[14]

ولأن توليياتي أراد أن يضفي على الانتفاضة طابعا "وطنيا" محضا، فقد حرص ألا تلعب الطبقة العاملة أي دور حاسم، وأن يقتصر الأنصار على دور قوات مساعدة لقوات الحلفاء المتقدمة.

لكن الجماهير الكادحة لعبت دورا محوريا. ففي الثامن عشر من إبريل بدأ الإضراب في تورينو. ثم انتفضت مودينا وبولونيا وفيرارا وريجيو إميليا ولاسبيتسيا بين يومي الحادي والعشرين والثالث والعشرين. وتحررت جنوة بين يومي الثالث والعشرين والسادس والعشرين، وميلانو في الخامس والعشرين.

ونظرا لأهمية ميلانو باعتبارها المدينة الرئيسية في شمال إيطاليا، فقد تم اعتماد هذا اليوم (الخامس والعشرين من إبريل)، في وقت لاحق باعتباره التاريخ الرمزي للاحتفال بالتحرر من النازية والفاشية.

في ذلك المساء فر موسوليني من ميلانو، متجها نحو الشمال للهروب من البلاد. وانضم هو وخمسون فاشيا بارزا آخرين إلى رتل من القوات الجوية الألمانية أثناء انسحابه نحو الحدود السويسرية. ورغم أن الأحداث اللاحقة ما تزال محل خلاف، فمن المعتقد على نطاق واسع أن الأنصار الشيوعيين اعترضوهم في السابع والعشرين، وأعدموهم في اليوم التالي.

وفي منطقة بيدمونت، لم يصدر الأمر بالانتفاضة إلا في السادس والعشرين. ولكن تورينو، المدينة الرئيسية، تحررت على يد العمال حتى قبل وصول الأنصار.

يصف المؤرخ غويدو كوازا، الذي كان في ذلك الوقت عضوا في حزب العمل (Par-tito d'Azione)، الذي هو حزب برجوازي صغير مناهض للفاشية، حالة ازدواجية السلطة التي نشأت في أبريل 1945، قائلا:

«قبل 25 أبريل، ولمدة 10 أيام، مارست الجماهير الشعبية السلطة الحقيقية في شمال إيطاليا، في حين كانت قوات الحلفاء ما تزال بعيدة، ومارست السيطرة على المصانع، وكان هناك نهوض كبير لحركة الفلاحين في العديد من المناطق».[15]

أي بعبارة أخرى، فعلى الرغم من أن السلطة الرسمية كانت في أيدي العسكريين، سواء الحلفاء أو النازيين-الفاشيين؛ فإن السلطة الحقيقية كانت في أيدي الجماهير.

تم تحرير جميع البلدات والمدن في الشمال على يد الأنصار والجماهير العاملة، قبل وصول جيوش الحلفاء. وقد كان التحرر من النازية- الفاشية، بالنسبة للعديد منهم، مجرد الفصل الأول، الذي لا بد أن يعقبه الفصل الثاني، وهو الثورة الشيوعية. كانت الجماهير تنتظر بفارغ الصبر الدعوة إلى الاستيلاء على السلطة. وكان العمال في المدن، والفلاحون والعمال الزراعيون في الأرياف، قد وضعوا قائمة بأرباب العمل وكبار الملاكين الذين يتعين تصفية الحساب معهم.

وقد عكست كلمات أحد أعضاء الحزب الشيوعي الإيطالي في بولونيا هذا المزاج، حيث قال:

«كنا نريد تدمير الملكية الخاصة، كنا نريد أن يكون العمل مِلكا للجميع، حقا للجميع. كنا نطمح إلى مجتمع بدون مستغَلين أو مستغِلين، ويبدو لي أننا ما زلنا جد بعيدين كل البعد عن ذلك».

وعلى نحو مماثل، يتذكر أحد عمال قطاع الصلب في ريجيانا قائلا:

«في ذلك الوقت، كنا نفكر بشكل دائم في تطوير مجتمع اشتراكي كان نموذجه هو الاتحاد السوفياتي. كنا مقتنعين بأننا سنحققه عاجلا، وأننا سنبني الإنسان الجديد: الملتزم، المجتهد، القادر على تشييد عالم خال من المستغَلين أو المستغِلين».[16]

من الجدير بالذكر هنا أن هذه "المرحلة التالية" هي ما كان زعماء الحزب الشيوعي الإيطالي وحزب الاشتراكي الإيطالي قد وعدوا به. وكانت هي السبب التي تم قبول "التنازلات المؤقتة" من أجله. وهذا ما ضحى من أجله العديد من الأنصار -رجالا ونساء وشبابا- بحياتهم (تشير الأرقام الرسمية للمقاومة إلى مقتل 44.700 شخص وإصابة 22.000 آخرين).

ثورة مضادة بقناع ديمقراطي

كانت البرجوازية وأحزابها أضعف من أن تتمكن بنفسها من سحق ذلك النهوض الثوري للجماهير. لذلك اعتمدت على "حكومة لجنة التحرير الوطني" التي تم تنصيبها في أبريل 1945 -والحكومات الائتلافية الأخرى التي تلتها حتى عام 1947- كمرحلة انتقالية ضرورية لاستعادة

تعليق جثث موسوليني (الثاني من اليسار) وفاشيين آخرين في مكان عام بعد إعدامهم في ميلانو، 29 أبريل 1945

النظام، بينما تشوه سمعة زعماء الحركة العمالية. وفي الوقت نفسه استخدمت تلك الفرصة لبناء "بديل معتدل" حول حزب الديمقراطية المسيحية الذي كان قد تم إنشاؤه حديثا.

وكما هي الحال غالبا في تحالفات الجبهة الشعبية في خضم الأوضاع الثورية، يفضل ممثلو الطبقة السائدة عدم الظهور في الواجهة. فهم يرسلون زعماء الطبقة العاملة المعترف بهم من أجل القيام بالأعمال القذرة نيابة عنهم، في حين يوجهون سياساتهم من خلف الكواليس.

كانت حكومة لجنة التحرير الوطني التي تأسست في أعقاب التحرير، تتمتع بسلطة هائلة في نظر الجماهير. ومع تولي فيروتشيو باري، أحد أشهر قادة الأنصار، منصب رئيس الوزراء، بدا للكثيرين أن المقاومة قد وصلت إلى السلطة.

وفعلا فقد كان "اليسار" يشغل المناصب الأكثر أهمية في الحكومة الجديدة. كان باري يشغل أيضا منصب وزير الداخلية؛ وكان الاشتراكي نيني نائبا لرئيس الوزراء مسؤولا عن تطهير البلاد من الفاشيين؛ بينما كان للحزب الشيوعي الإيطالي توليا، وزيرا للعدل، وجولو وزيرا للزراعة، وسكوتشيمارو وزيرا للمالية.

بدت حكومة لجنة التحرير الوطني في وضع جيد جدا لبدء التغيير الجذري. وفي الوقت نفسه، كانت المصانع تحت سيطرة العمال، وكانت الأراضي محتلة من قبل الفلاحين والعمال الزراعيين. وكانت البرجوازية في تراجع تام.

لكن الزعماء الشيوعيين والاشتراكيين لم تكن لديهم أية نية في القيام بثورة. بل تصرفوا بدلا من ذلك مثل رجال إطفاء يواجهون حريقا هائلا.

قبل 25 أبريل، شعرت القيادة العامة لألوية غاريبالدي بأنها مضطرة إلى تذكير مقاتليها بأنه عليهم "ألا يقوموا بعمليات مصادرة ضد أي شخص ليس مؤيدا للنازية". لكن كان من الصعب للغاية في عام 1945 العثور على رأسمالي في إيطاليا ما يزال يعلن نفسه فاشيا!

كان شعار "الديمقراطية التقدمية"، الذي تبناه الحزب الشيوعي الإيطالي، محوريا في خط "الحزب الجديد". وقد كان من المفترض أن تكون تلك ديمقراطية تؤدي فيها الجماهير المضطهَدة دورا قياديا، محولةً ميزان القوى لصالح العمال. وقد بقيت هذه الصيغة محور سياسة الحزب لعقود لاحقة.

وكان من المحتم أن تُترك ملكية الرأسماليين لقوى الإنتاج كما هي، ضمن نظام الديمقراطية البرجوازية. إلا أن تاريخ المجتمع الطبقي يُظهر استحالة تعايش طبقتين سائدتين في آن واحد. إذ لا بد أن تسود إحداهما دائما على الأخرى، ولا يمكن لأي طبقة أن تحكم دون أن تستولي على السلطة الاقتصادية والسياسية.

تحققت أهداف البرجوازية بالكامل، حيث لعب الشيوعيون دورا حاسما في إعادة بناء جهاز الدولة البرجوازي بعد سقوط موسوليني والتحرر من النازية-الفاشية.

وقد احتفى قادة الحزب الشيوعي الإيطالي، على نحوٍ مخز، بتلك الفترة

باعتبارها انتقالا منتصرا من الفاشية إلى "الديمقراطية". كانت تلك تحديدا هي "الثورة المضادة ذات القناع الديمقراطي" التي تنبأ بها تروتسكي سنة 1930. لكن بعد اغتيال تروتسكي سنة 1940، استمرت قيادة الأممية الرابعة تؤكد، بشكل ميكانيكي، استحالة قيام أنظمة الديمقراطية البرجوازية في جميع أنحاء أوروبا آنذاك.

وحده تيد غرانت من حلل بدقة طبيعة السيرورة أثناء تطورها. وكما أوضح آنذاك:

«يجد [الرأسماليون] أداة جاهزة وطيعة في شخص المنظمات الاشتراكية الديمقراطية والستالينية لعرقلة النهوض الثوري للجماهير وتحويله إلى قنوات التعاون الطبقي الآمنة وغير الضارة، من خلال شكل من أشكال الجبهات الشعبية أكثر انحطاطا مما كان موجودا في الماضي. وهكذا، سيجمعون بين القمع والإصلاحات الوهمية، وسيحطمون الهيئات الجنينية لسلطة العمال ويجردون الجماهير من سلاحها، بينما يعلنون في الوقت نفسه رغبتهم في حكومة "تمثيلية" وحريات "ديمقراطية". [...] صحيح أن الثورة المضادة لرأس المال ستتخذ، في مراحلها الأولى، وبعد فترة قصيرة من تأسيس الحكومة العسكرية، شكلا "ديمقراطيا"».[17]

الثورة المغدورة

أطلق العفو العام عن الفاشيين، والذي وقعه توليياتي، بصفته وزيرا للعدل، سراح آلاف الفاشيين وبرأهم من جرائمهم. وبحلول سنة 1946، أُعيد جهاز الدولة إلى سيطرة الطبقة السائدة من خلال عزل جميع حكام المقاطعات ومفوضي الشرطة القادمين من صفوف المقاومة.

والشيء الأكثر إثارة للخزي هو أن الحزب الشيوعي الإيطالي أمر بنزع سلاح ألوية الأنصار، وإعادة المصانع المحتلة إلى أصحابها "الشرعيين".

سنة 1962، قام جورجيو أميندولا، عضو البرلمان عن الحزب الشيوعي الإيطالي من 1948 حتى وفاته عام 1980، والشخصية البارزة في الجناح اليميني للحزب الشيوعي الإيطالي، بشرح أهداف قادة الحزب في تلك اللحظة الحاسمة، حيث قال:

«خلال أيام الانتفاضة، تخلى أصحاب العمل [...] عن مواقعهم. وتولى العمال والتقنيون وذوو الياقات البيضاء، الذين تجمعوا حول لجان التحرر الوطني في الشركات [لجنة التحرير الوطني]، مهمة تسيير المصانع». وأوضح أن هذا **«لم يكن بهدف إقامة نظام طبقي من خلال إقصاء الملاكين، بل لضمان تسييرها بما يخدم مصلحة الوطن»**.

ماذا قصد أميندولا بهذا؟ لقد أوضح أن الهدف كان هو "تحقيق عودة الملاكين إلى المصانع [...] حتى يتحملوا مسؤولياتهم"، ويعيدوا استثمار "رأسمالهم المخفي في الشركات، ويقبلوا رقابة مجالس الإدارة".[18]

ظهرت "مجالس الإدارة" في العديد من المصانع المهجورة. لكن قادة الحزب الشيوعي الإيطالي أصروا على أن يكون لها "دور استشاري" فقط، بينما سهلوا عودة الرأسماليين إليها. إلا أن الشيء الذي لم يشر إليه أميندولا هو حقيقة أنه بمجرد عودة هؤلاء الرأسماليين "لتولي مسؤولياتهم"، سارعوا إلى طرد العمال الذين لعبوا دورا رئيسيا في حماية المصانع من القوات النازية المنسحبة.

وفي الواقع، ففي بداية عام 1946، وافق الحزب الشيوعي الإيطالي على إنهاء قرار تجميد عمليات تسريح العمال، في الوقت الذي كان التضخم يرتفع بشكل حاد. أما الإصلاح الزراعي، على الرغم من أنه أصبح قانونا، فإنه لم يطبق إلا لماما.

في انتخابات الجمعية التأسيسية في يونيو 1946 (التي تزامنت مع الاستفتاء على الحفاظ على النظام الملكي)، جاء الحزب الديمقراطي المسيحي في المرتبة الأولى. وكان الحزب الاشتراكي الإيطالي المتحد الحزب اليساري الأول في ميلانو وتورينو، وحصل على 21% من الأصوات على الصعيد الوطني. تبعه الحزب الشيوعي الإيطالي في المركز الثالث بفارق ضئيل، حيث حصل على 19%. لقد رسخ "اليسار" وجوده في المدن والشمال، لكنه دفع ثمن مشاركته في الحكومة.

تشكلت حكومة "وحدة وطنية" لرئاسة الجمهورية الإيطالية الجديدة. واستمر هذا الوضع حتى قام رئيس الوزراء الديمقراطي المسيحي، دي غاسبيري، بزيارة إلى الولايات المتحدة في يناير 1947. وقد ضمنت له واشنطن دعمها الكامل، بما في ذلك المساعدات المالية بموجب ما أصبح يعرف باسم "خطة مارشال"، بشرط إبعاد الحزب الشيوعي الإيطالي والحزب الاشتراكي الإيطالي من الحكومة، وهو ما تحقق في ماي.

تكررت نفس السيرورة في جميع أنحاء أوروبا. حيث انتهت الائتلافات التي انبثقت عن المقاومة بإقصاء الشيوعيين والاشتراكيين، بعد أن استنفدوا دورهم من وجهة نظر البرجوازية مع وصول الصراع الطبقي إلى حدوده.

مقتطف من ملصق للحزب الشيوعي الإيطالي سنة 1945

إضراب في تورين، 18 أبريل 1945

1948: الفرصة الأخيرة

في سنة 1948، كانت الفترة الثورية الطويلة قد وصلت إلى نهايتها. تعرض اليسار للهزيمة في انتخابات 18 أبريل، حيث حصلت القائمة الموحدة للحزب الشيوعي الإيطالي والحزب الاشتراكي الإيطالي على 31% من الأصوات، مقابل 48% للحزب الديمقراطي المسيحي.

لكن وعلى الرغم من تلك النكسة، فقد لاحت فجأة فرصة ثورية جديدة. ففي صباح 14 يوليوز، أصيب توليياتي بجروح خطيرة على يد متعصب مناهض للشيوعية. وفجأة، توقفت الحياة في إيطاليا بأكملها. ولم يبق عامل أو فلاح أو كادح إلا وانضم إلى الاحتجاجات.

في تورينو، احتل العمال المسلحون جميع المصانع وحاصروها. وفي جنوة، احتل العمال الساحات والشوارع، وأقاموا المتاريس. وانتصروا بسهولة في الاشتباكات مع الشرطة، بينما استولى المنتفضون على محطات الإذاعة والصحف.

في ميلانو، احتشد مئات الآلاف من العمال في ساحة دومو. وتم احتلال جميع المصانع. وسيطر العمال على سيستو سان جيوفاني، التي هي أهم منطقة صناعية في لومبارديا. وقد تكررت حالات مماثلة في مدن إيطالية أخرى، بما في ذلك بولونيا وفلورنسا والبندقية ونابولي. وفي روما، اندلعت اشتباكات مع الشرطة في كل أرجاء المدينة.

ومرة أخرى، خان الحزب الشيوعي الإيطالي الحراك الثوري للجماهير. حيث أعلنت قيادة الحزب "لا للاستسلام لفرضيات الانتفاضة".

ومع ذلك فخلال الأيام الثلاثة للإضراب العام الذي تلا ذلك النهوض، أبانت الطبقة العاملة عزمها الراسخ على المضي قدما حتى النهاية. تعاطفت البرجوازية الصغيرة مع العمال، بينما كانت البرجوازية عاجزة، على الأقل في اليومين الأولين، بينما كانت الشرطة مستنزفة القوى.

كل ما كان ينقص العمال هو حزب شيوعي حقيقي، طليعة ثورية تقودهم إلى الاستيلاء على السلطة. لكن هذا، للأسف، كان هو العامل المفقود طوال تلك الفترة الاستثنائية.

استعادت البرجوازية رباطة جأشها، ورفعت رأسها من جديد، وشنت حملة قمع وحشية، اعتُقل خلالها الآلاف وتم تسريح عشرات الآلاف.

استغرقت الحركة العمالية الإيطالية أكثر من عشرين عاما للتعافي من تلك الهزيمة التاريخية، مع "خريف 1969 الحار".

اليوم، وبعد ثمانين عاما من التحرر من النازية-الفاشية، تشهد إيطاليا، كما في بقية العالم، تناقضات متفجرة تُمهد الطريق لوضع ثوري جديد. لكن هذه المرة، لم يعد هناك وجود لذلك الحزب الشيوعي القوي الذي مارس سيطرة شبه كاملة على الجماهير العاملة.

ما تزال هناك حاجة لبناء حزب شيوعي، حزب ببرنامج ثوري، يستوعب دروس تلك الثورة المغدورة ويجعلها في متناول الشباب والعمال. فإذا تم بناء مثل هذا الحزب في إيطاليا، فإن الفترة الثورية القادمة ستشهد انتصار الطبقة العاملة، واكتساحها للرأسمالية إلى الأبد.

المراجع على موقعنا
marxist.com/
idom-49-references
أو قم بمسح رمز QR

استعادة النظام في المصانع

لقد دعمت الطبقة الرأسمالية بشكل علني النظام الفاشي وتعاونت معه، وكذلك تعاونت مع النازيين بعد احتلال إيطاليا. وعندما هُزم النظام أخيرا ودخل الأنصار جميع المدن الكبرى في الشمال، فر أرباب العمل خوفا من المصير الذي كان ينتظرهم على أيدي الطبقة العاملة الغاضبة.

وقعت المصانع بحكم الأمر الواقع تحت سيطرة العمال. وأدركت الطبقة الرأسمالية الخطر الحقيقي المتمثل في مصادرة ممتلكاتها من طرف الطبقة العاملة التي كانت تصعد إلى السلطة. لكن ذلك لم يكن هو ما كان قادة الحزب الشيوعي الإيطالي يسعون إليه، بل على العكس تماما، كان هدفهم هو تطبيع العلاقات مع أرباب العمل.

كان هذا هو المزاج السائد بين صفوف عمال الحزب الشيوعي الإيطالي، حتى أن اتحاده المحلي في تورينو كان مشبعا بروح السلطة العمالية. حتى أن تولياتي ودي فيتوريو (الأمين العام للاتحاد العام الإيطالي للشغل الذي كان قد أعيد تأسيسه) تدخلا شخصيا لاحتواء تلك "النزعة العمالوية" التي أصابت الحزب في تورينو.

لكن وبسبب تعرض العمال لضغوط من قيادات الحزب، تمكن الرئيس التنفيذي لشركة فيات، فاليتا، بالتعاون مع مالكها، جيوفاني أنييلي، من استعادة السيطرة على المصنع.

تكرر هذا في العديد من المصانع، حيث لم يتمكن أرباب العمل من استعادة السيطرة إلا بفضل النهج الذي اتبعه قادة الحزب الشيوعي الإيطالي. وفي عدة حالات، وجه أرباب العمل النداء إلى القادة الشيوعيين في لجنة التحرير الوطني لأجل مساعدتهم.

وعقب نزاع حول مقدار السلطة التي يجب أن يتمتع بها العمال في مصنع ماغنيتي ماريلي في ميلانو، أصدرت لجنة التحرير الوطني في منطقة لومباردي تعميما إلى أنصارها في الشركة ينص بوضوح على أنه:

«يجب على أنصار لجنة التحرير الوطني أن يعملوا، أيا كان الثمن، داخل الشركة لمصلحة الحكومة والأمة. [...] إنهم لا يعملون، ويجب ألا يعملوا، من أجل المصالح الخاصة لعمال تلك الشركة. وفي جميع المشاكل، يجب على أنصار لجنة التحرير الوطني أن يتصرفوا على أنهم جهاز الحكومة والعدالة الوطنية، وليس تصرف جهاز طبقي وديماغوجي. [...] وإذا اضطرت لجنة التحرير الوطني في مرحلة ما إلى تبني مواقف ومبادرات تتعارض مع المصالح المباشرة الظاهرية للعمال، فعليها أن تتحلى بالشجاعة للقيام بذلك. لا داعي للقلق بشأن فقدان شعبيتها، حتى لو اتخذت قرارات غير شعبية، إن صح التعبير».[1]

إلا أن ذلك النهج كان "غير شعبي" بالفعل، وفي كثير من الحالات طبقت لجان الإدارة تلك نظام الرقابة العمالية، وهو أمر لم يكن أرباب العمل مستعدين لتحمله.

لكن ما حدث في مصنع ميرافوري الشهير لشركة فيات في تورينو -والذي كان يضم قوة عاملة تزيد عن 20 ألف عامل- يوضح كيف تم كبح العمال. عندما أجريت انتخابات لجنة الإدارة، كان ستة من أعضائها السبعة أعضاء في الحزب الشيوعي الإيطالي.

لكن الحزب أجبر الأعضاء المنتخبين في اللجنة على الاستقالة. ثم اقترح أن يتم انتخاب ممثلي العمال ذوي الياقات الزرقاء والعمال ذوي الياقات البيضاء بشكل منفصل، وذلك لضمان ثلاثة ممثلين من ذوي الياقات البيضاء وأربعة ممثلين من ذوي الياقات الزرقاء.

أدت القائمة المتفق عليها إلى انتخاب عضوين من الحزب الشيوعي الإيطالي، واثنين من الحزب الاشتراكي الإيطالي، وعضو واحد من الحزب الديمقراطي المسيحي، وعضو واحد من حزب العمل، وعضو واحد مستقل. كان الهدف واضحا وهو إقصاء الأغلبية الشيوعية، التي انتخبتها جماهير العمال، من أجل تهدئة مخاوف أرباب العمل.[2]

وقد تكررت تلك المناورات في جميع مصانع الشمال الكبرى. كانت "ثورة مضادة بقناع ديمقراطي" تُطبق عمليا في كل أماكن العمل. فأُعيدت السلطة إلى أرباب العمل، وأعقب ذلك، بعد فترة وجيزة، هجوم مضاد شرس ضد جميع العمال الذين تجرأوا على تحدي حكم أرباب العمل في أماكن العمل.

1: Quoted in S Vento, F Levi, P Rugafiori, *Il Triangolo industriale tra ricostruzione e lotta di classe 1945-48*, Feltrinelli, 1974, pg 131, our translation

2: L Lanzardo, *Classe operaia e partito comunista alla FIAT - 1945-49*, Einaudi, 1971, pg 242

الجدول الزمني

1940 — 1942

10 يونيو 1940: إيطاليا تعلن الحرب على فرنسا وبريطانيا.

22 يونيو 1941: إيطاليا تشارك في الغزو الألماني للاتحاد السوفيتي.

نوفمبر 1942 — فبراير 1943: الجيش الأحمر يهزم قوات المحور في ستالينغراد ويبدأ هجومًا مضادًا. القوات الإيطالية تنسحب من الجبهة الشرقية.

1943

5 مارس 1943: بدء إضراب في تورينو وامتداده إلى شمال إيطاليا.

9 يوليو: بداية غزو الحلفاء لصقلية.

24-25 يوليو: اعتقال موسوليني وعزله. تشكيل الحكومة الأولى لبادوليو.

3 شتنبر: توقيع إيطاليا على هدنة مع الحلفاء (أُعلن عنها في 8 شتنبر).

8 شتنبر: الجيش الألماني يبدأ السيطرة على إيطاليا.

9 شتنبر: فرار الحكومة والملك من روما إلى برينديزي. تشكيل لجنة التحرير الوطنية (CLN) لتنسيق المقاومة المسلحة.

10 شتنبر: سقوط روما في يد النازيين.

12 شتنبر: النازيون يحررون موسوليني.

25 شتنبر: إعلان «الجمهورية الاشتراكية الإيطالية» في سالو، بقيادة موسوليني وتحت الاحتلال الألماني.

27-30 شتنبر: «أيام نابولي الأربعة» — انتفاضة ناجحة لتحرير المدينة من طرف العمال.

فوتومونتاج لعمال مضربين في تورين، 1943

1944

1-8 مارس 1944: إضراب عام يعم شمال إيطاليا.

30-31 مارس: إعلان «منعطف ساليرنو» من قبل قيادة الحزب الشيوعي الإيطالي.

22 أبريل: تشكيل حكومة بادوليو الثانية.

4-5 يونيو: الحلفاء يدخلون روما.

9 أكتوبر: «مؤتمر موسكو» — ستالين يطمئن تشرشل بأن إيطاليا ستظل ضمن دائرة نفوذ الغرب.

7 دجنبر: «بروتوكولات روما» — قيادة لجنة التحرير الوطني توقّع على الاستسلام للإمبريالية.

1945

18 أبريل: بدء إضراب في تورينو. العمال في مدن شمال إيطاليا ينتفضون لتحرير مدنهم بدعم من المقاومة. بروز ازدواجية السلطة.

25 أبريل: تحرير ميلانو. فرار موسوليني. تشكيل حكومة ائتلافية من لجنة التحرير الوطني.

27-28 أبريل: القبض على موسوليني وإعدامه.

29 أبريل: استسلام النازيين.

1946 — 1948

يونيو 1946: انتخابات الجمعية التأسيسية. الحزب الشيوعي يصبح ثالث أكبر الأحزاب من حيث عدد الأصوات. إلغاء المَلَكية في استفتاء.

مايو 1947: طرد الحزب الشيوعي الإيطالي الحزب الاشتراكي الإيطالي (PSIUP) من الحكومة.

18 أبريل 1948: هزيمة اليسار في الانتخابات العامة.

14 يوليو 1948: محاولة اغتيال توغلياتي. إضراب عام لثلاثة أيام يُهزم بفعل قرارات قيادة الحزب الشيوعي الإيطالي.

إضراب عمّال مصنع رونو في باريس، 25 أبريل 1947

تحرير فرنسا: الفرصة الضائعة

لعب الحزب الشيوعي الفرنسي دورًا قياديًا في المقاومة الفرنسية خلال الحرب العالمية الثانية. ومع فقدان النظام القديم مصداقيته، وجد الشيوعيون أنفسهم في موقع قوي يتيح لهم الاستيلاء على السلطة خلال فترة تحرير فرنسا وبعدها. يشرح جول ليجوندغ كيف ولماذا سعى قادة الحزب الشيوعي، عن وعي، إلى كبح جماح الطبقة العاملة، وإعادة إنعاش الرأسمالية الفرنسية.

تُعد حركة المقاومة الفرنسية والتحرير خلال الحرب العالمية الثانية من أبرز حلقات الصراع الطبقي الفرنسي. أدت التعبئة الجماهيرية للطبقة العاملة إلى فتح آفاق الإطاحة الثورية بالرأسمالية، وهو الأمر الذي أثار رعب الطبقة السائدة.

إلا أن قادة الطبقة العاملة، بدءا من قادة الحزب الشيوعي الفرنسي، خانوا تلك الحركة. فقد بذلوا كل ما في وسعهم لاستعادة الرأسمالية الفرنسية وإبقاء شعوب المستعمرات تحت نير الإمبريالية الفرنسية.

الحزب الشيوعي والحرب

شهدت سياسة الحزب الشيوعي الفرنسي، في بداية الحرب العالمية الثانية، تغيرات مفاجئة بتأثير من البيروقراطية الستالينية في الاتحاد السوفياتي. فإلى حدود صيف عام 1939، استمرت موسكو في محاولة إبرام تحالف عسكري مع البرجوازية الفرنسية، التي صورها الحزب الشيوعي الفرنسي على أنها "صديقة السلام" و"الديمقراطية".

إلا أن الحرب العالمية الثانية -مثلها مثل الأولى- لم تخض "من أجل الديمقراطية"، بل إنها وضعت القوى الإمبريالية الفرنسية والبريطانية "العريقة" في مواجهة منافستها "الصاعدة"، الإمبريالية الألمانية، التي لم تكن النازية سوى "عصارتها الخالصة"، كما أوضح تروتسكي. وبعيدا عن أي اهتمام "ديمقراطي"، خاضت فرنسا وبريطانيا الحرب من أجل الإبقاء على استعباد مئات الملايين من الناس في مستعمراتهما حول العالم. وعلاوة على ذلك، فإنه منذ 26 غشت 1939، وحتى قبل اندلاع الحرب، قامت الحكومة الفرنسية "الديمقراطية" بحظر الصحافة الشيوعية والتروتسكية،

قبل أن تعمل على حظر الحزب الشيوعي الفرنسي نفسه في نهاية شتنبر.

خلال صيف عام 1939، ذهب موريس ثوريز، الزعيم الرئيسي للحزب الشيوعي الفرنسي، إلى حد التطوع علنا في الجيش الفرنسي، وفاء منه للخط الذي أملته موسكو. لكن ولسوء حظه قرر ستالين توقيع معاهدة عسكرية مع هتلر في غشت 1939. ففر ثوريز على عجل من الجندية وسافر إلى الخارج، بينما شرع الحزب الشيوعي الفرنسي في التنديد بالحرب التي كانت قد اندلعت للتو، والتي كان قد أيدها حتى ذلك الحين دون تحفظ.

في ماي ويونيو 1940، اجتاحت الجيوش النازية القوات الفرنسية واحتلت باريس. وفي 10 يوليوز، منحت الجمعية الوطنية، التي كانت قد لجأت إلى مدينة فيشي في وسط فرنسا، صلاحيات كاملة للمارشال فيليب بيتان. أسس بيتان على الفور ديكتاتورية عسكرية بونابرتية -"نظام فيشي"- وأعلن سياسة "التعاون" مع ألمانيا.

وعلى الرغم من انضمام بعض المناضلين الشيوعيين إلى المقاومة ضد نظام فيشي والاحتلال النازي منذ صيف 1940، فإن السياسة الرسمية للحزب الشيوعي الفرنسي بقيت مشوشة للغاية. حتى أن بعض قادته حاولوا (دون جدوى) التفاوض مع النازيين للحصول على حق إعادة إصدار صحيفتهم "لومانيتيه" بشكل قانوني، استنادا إلى التحالف الذي شكله الميثاق النازي السوفياتي.

أدى غزو الجيش الألماني للاتحاد السوفياتي في يونيو 1941 إلى تحول جذري: إذ تلقت مختلف الأحزاب الشيوعية حول العالم أوامر من موسكو بدعم المجهود الحربي للحلفاء بأي ثمن.

في فرنسا، قاد الحزب الشيوعي الفرنسي سياسة تحالف مع الجناح البرجوازي للمقاومة. وفي ماي 1943، انضم إلى "المجلس الوطني للمقاومة"، مندمجا في ائتلاف

ملصق للحزب الشيوعي الفرنسي سنة 1945 ينتقد تواطؤ الرأسماليين الفرنسيين مع النازيين

يضم جميع الأحزاب البرجوازية الرئيسية وحركات المقاومة. ثم في يونيو 1943، انضم الحزب إلى حكومة المنفى بقيادة الجنرال شارل ديغول، الذي كان الاتحاد السوفياتي، في دجنبر 1941، قد اعترف به الزعيم "الشرعي" والوحيد لفرنسا. كان ذلك في الواقع استمرارا لسياسة التعاون الطبقي، "الجبهة الشعبية"، التي انتهجها الحزب الشيوعي الفرنسي منذ سنة 1936.

تبنى الحزب الشيوعي الفرنسي منظورا قوميا في جوهره، واتخذت دعايته نبرة معادية للألمان بدلا من معاداة الفاشية. وبدلا من تبني سياسة طبقية -لا سيما فيما يتعلق بالطبقة العاملة الألمانية، التي كانت تعاني هي الأخرى تحت نير النظام النازي- فقد طرحت صحيفة لومانيتيه، وغيرها من الصحف السرية المرتبطة بالحزب الشيوعي الفرنسي، شعار: "لكلٍ منا بوخه (Boche) الخاص به [مصطلح مهين للألمان]!"[1]. ولم يقاتل أعضاء المقاومة تحت قيادة الحزب الشيوعي بالشارة الشيوعية، بل تحت العلم الفرنسي ثلاثي الألوان، دون نجمة حمراء أو مطرقة ومنجل.

تراكم الهزائم على الرايخ الثالث دفع تدريجيا بالعديد من القادة البرجوازيين، وحتى بعض مؤيدي بيتان، إلى الانضمام إلى المقاومة. كان ذلك، على سبيل المثال، حال الجنرال ألفونس جوان. وعندما احتلت القوات الأمريكية الجزائر -التي كانت مستعمرة فرنسية- في نوفمبر 1942، تحول

جوان من البيتانية إلى الديغولية في غضون أيام قليلة. لكن الحزب الشيوعي الفرنسي غض الطرف عن هذا "التمويه" الديغولي باسم "الوحدة الوطنية".

آنذاك كانت جماعات المقاومة الشيوعية تتحدى، من جانبها، جميع المخاطر. فرغم مطاردتهم من قبل شرطة فيشي والألمان، لم يترددوا في تنظيم توزيع المنشورات والإضرابات وحتى المظاهرات العامة، على مرأى ومسمع من سلطات الاحتلال. كما صعّدوا هجماتهم على الجنود الألمان. وقد دفع آلاف المناضلين حياتهم ثمنا لذلك التفاني.

استفاد الحزب الشيوعي الفرنسي أيضا من هالة الانتصارات التي حققها الجيش الأحمر في الاتحاد السوفياتي عقب معركة ستالينغراد. أصبح الشيوعيون، في نظر الشعب الفرنسي، تجسيدا للمقاومة ضد الاحتلال النازي. لذلك كان الحزب الشيوعي الفرنسي في موقع قوة عند تحرر البلاد من النازيين وعملائهم. لكن قيادته بذلت قصارى جهدها لاستعادة سلطة البرجوازية الفرنسية، بدلا من الإطاحة بها.

انتفاضة صيف 1944

صارت المقاومة قوة هائلة ابتداء من عام 1944 فصاعدا. انضم عشرات الآلاف من الناس إلى "الماكي" (الاسم الذي كان يُستخدم لكل مجموعات المقاومة خارج المدن) أو مجموعات حرب عصابات المدن، وألحقوا الهزائم بالقوات الألمانية وميليشيات فيشي.

وبينما حاول ديغول احتواء عمل المقاومة الديغولية قدر الإمكان، وحصرها في لعب دور مساعد للقوات النظامية للحلفاء، فقد انخرط الحزب الشيوعي الفرنسي بكل حماس في العمل السري وحرب العصابات.

اشتد القمع النازي خلال سنة 1944، وخاصة بعد إنزال الحلفاء في نورماندي (06 يونيو 1944) وبروفانس (15 غشت 1944). وطوال صيف 1944، ومع تصاعد التمرد وأعمال الماكي، تضاعفت الفظائع التي كان يرتكبها الألمان وحكومة فيشي. ففي 09 يونيو، تم شنق أكثر من مائة مدني على يد قوات الأمن الخاصة (SS) التابعة لفرقة الرايخ في تول (ليموزان). وفي اليوم التالي، أشعلت وحدة أخرى من فرقة الرايخ نفسها النار في قرية أورادور سور غلان (Oradour-sur-Glane) بعد ذبح سكانها البالغ عددهم 640 نسمة.

لكن الفاشيين عانوا بدورهم من النكسات. ففي يوليوز 1944، نجح شيوعيو الماكي في ليموزان، بقيادة المعلم السابق جورج غينغوين، في مقاومة هجوم شنه الجيش الألماني وميليشيات فيشي خلال معركة مونت غارغان.

تمكن الحلفاء أخيرا، بعد شهرين من القتال العنيف في نورماندي، من اختراق الجبهة والتقدم نحو باريس. وفي الوقت نفسه توجهت الوحدات التي نزلت في بروفانس شمالا عبر وادي الرون لملاحقة القوات النازية المنسحبة. لكن في جميع الأماكن الأخرى، وخاصة في منطقة جبال الكتلة الوسطى والجنوب الغربي، كانت قوات الماكي هي التي حققت التحرير بعد أن سيطرت على المدن. كانت السلطة في العديد من المناطق بين أيدي السكان المنتفضين، الذين شكلوا بعد ذلك "لجان التحرير" لإدارة المناطق المحررة حديثا.

تشرشل وديغول، 11 نوفمبر 1944

وفي نهاية غشت 1944، انتفض سكان باريس بدورهم. لقد أثارت تلك الانتفاضة، التي انطلقت بمبادرة من المقاومة الشيوعية أساسا، رعب قادة الحلفاء، إذ خشوا أن يستغل الحزب الشيوعي الفرنسي الوضع للاستيلاء على السلطة. فأرسل ديغول على وجه السرعة قوات فرنسية، بعضها مشكل من منفيين جمهوريين إسبان، حرروا المدينة "بالتعاون" مع سكانها المتمردين.

لكن قادة الحزب الشيوعي الفرنسي لم تكن لديهم أية نية في الاستيلاء على السلطة. وعلاوة على ذلك فإنهم كانوا قد تلقوا بالفعل تعليمات صارمة من موسكو مفادها ضرورة استعادة سلطة الدولة البرجوازية مهما كلف الأمر. كان ستالين يأمل في الحفاظ على العلاقات الطيبة التي أقامها مع القوى الإمبريالية الغربية خلال الحرب. كما خشيت البيروقراطية السوفياتية من المثال الذي ستتركه على الشعب السوفياتي ثورة بروليتارية منتصرة في بلد أوروبي غربي، تفضي إلى بناء دولة عمالية سليمة خالية من البيروقراطية.

عودة "النظام"

في المناطق التي حررتها المقاومة، أرسل ديغول على وجه السرعة حكاما (مسؤولين حكوميين)، أخذوا السلطة من يد لجان التحرير، دون أن تبدي هذه الأخيرة أية مقاومة. وقد تم نقل السلطة بدعم وموافقة من الحزب الشيوعي الفرنسي، والكونفدرالية العامة للشغل (CGT) (أكبر اتحاد نقابي في البلاد) وجميع المنظمات الرئيسية للحركة العمالية.

كانت إحدى المشكلات التي نشأت آنذاك للبرجوازية هي نزع سلاح "الميليشيات الوطنية". كانت تلك الميليشيات قد تعززت بتدفق المتطوعين إلى صفوفها، وشاركت في المعارك الأولى ضد الألمان خلال صيف عام 1944، وتكبدت أحيانا خسائر فادحة. وقد شكلت سلطة موازية لسلطة الدولة البرجوازية التي كانت المقاومة الديغولية بصدد استعادتها.

في نهاية الخريف، أصدر الحزب الشيوعي الفرنسي الأمر بنزع سلاح الميليشيات الوطنية ودمج بعض أفرادها في الجيش النظامي، حيث وجدوا أنفسهم أحيانا تحت سلطة ضباط بيتانيين سابقين، مثل الجنرال جوان.

كان من السهل على مقاتلي المقاومة السابقين القبول بذلك الدمج لأن الحرب كانت لم تنته بعد. ففي ذلك الوقت كان الألمان ما يزالون يحتلون الألزاس (لم تحرر كولمار إلا في فبراير 1945)، بالإضافة إلى العديد من الموانئ على سواحل المحيط الأطلسي أو القناة الإنجليزية (مثل دونكيرك وسان مالو ولا روشيل).

وهكذا فقد تم استغلال استمرار الحرب من أجل حشد جميع الطبقات حول الدولة البرجوازية، بمساعدة نشطة من طرف قادة العمال. لذلك فقد فرح العديد من مقاتلي المقاومة وأعضاء "الماكي" بالانضمام إلى الجيش النظامي لمواصلة القتال ضد الألمان. تعرض الكثير منهم للقتل في المعارك التي دارت خلال العام الأخير من الحرب.

وفي حين تم تجريد قوات "المقاومة الداخلية" من السلاح، فقد حمت البرجوازية أجهزة الدولة. وحملة التطهير "الوحشية" ضد المتعاونين مع النازيين، والتي نفذها أعضاء الماكي بشكل تلقائي خلال أسابيع التحرير في صيف عام 1944، تم استبدالها بحملة تطهير "قانونية" كانت متساهلة للغاية. وعلى سبيل المثال فبينما لعب حكام المقاطعات دورا رئيسيا في قمع المقاومة وترحيل اليهود، فإنه لم يعاقب سوى واحد منهم: موريس بابون، الذي حوكم وأُدين في... عام 1998!

وبالمثل فإن حملة التطهير القانونية لم تؤثر إلا على حفنة من أرباب العمل: أولئك الذين تورطوا علنا في التعاون مع النازيين. وكانت هذه هي حالة لويس رينو، الذي وضع شركته تلقائيا في خدمة الفيرماخت. أُلقي القبض عليه وتوفي في السجن في أكتوبر 1944، بينما تم تأميم مصانعه. لكن حالته تعد استثناء عن القاعدة.

تمكنت الغالبية العظمى من أرباب الأعمال "المتعاونين" من مواصلة الاستمتاع بثرواتهم. في عام 1941، كان رئيس مجموعة لوريال، يوجين شولر، أحد مؤسسي حزب الحركة الاجتماعية الثورية المؤيد للنازية، والذي ندد بالبلشفية و"تدنيس العرق" من قبل اليهود. ومع ذلك فقد أفلت شولر من أي عقاب بعد التحرير. وحفيدته، فرانسواز بيتنكورت، هي اليوم أغنى امرأة في العالم.

حكومة "الوحدة الوطنية"

بعد تحرير باريس، تم تشكيل حكومة "وحدة وطنية" جديدة في التاسع من شتنبر 1944. وقد اتسمت تلك الحكومة منذ البداية بطابع برجوازي واضح. ولطمأنة الطبقة السائدة، بقيت جميع المناصب الرئيسية (الاقتصاد، والداخلية، والدفاع، إلخ) في أيدي وزراء برجوازيين أو بعض الوزراء الاشتراكيين القلائل، الذين كانوا جميعهم من الجناح اليميني للحزب الاشتراكي (SFIO).

أما الشيوعيون فإنهم ورغم دورهم القيادي في المقاومة، فقد شاركوا بإخلاص في الحكومة، بوزيرين من أصل 21 وزيرا. في الواقع لم تساعد مشاركة الشيوعيين في الحكومة في تقريب الطبقة العاملة قيد أنملة من السلطة، بل عملت فقط على توفير غطاء يساري لاستقرار الحكم الرأسمالي.

في انتخابات أكتوبر 1945، تعرض ديغول وبرنامجه الهادف إلى بناء جمهورية رئاسية ذات طابع فيشي لرفض قاطع من طرف الناخبين. فاضطر إلى التنحي. عندها تقاسمت الحكومة ثلاثة أحزاب: الحزب الشيوعي الفرنسي، الذي حقق تقدما في جميع الانتخابات الوطنية؛ والاشتراكيون؛ وحزب برجوازي جديد، هو الحركة

الجمهورية الشعبية (MRP).

تجدر الإشارة إلى أن الحركة الجمهورية الشعبية، كانت قد تبنت، مثلها مثل غيرها من الأحزاب، خطابا "اشتراكيا" سطحيا. ولم يكن ذلك مفاجئا. فبعد 15 عاما من الأزمة الاقتصادية العالمية والحرب الإمبريالية والفاشية، كانت الرأسمالية والبرجوازية قد فقدتا مصداقيتهما بشكل كبير.

ومن ناحية أخرى، كانت الحركة العمالية قوية للغاية. فقد كان للحزب الشيوعي الفرنسي أكثر من 800 ألف عضو؛ وكان يسيطر على الكونفدرالية العامة للشغل (CGT)، التي كانت تضم أكثر من خمسة ملايين عضو. لكنه عوض أن يدين نفاق السياسيين البرجوازيين في الحركة الجمهورية الشعبية، الذين أعلنوا أنفسهم "اشتراكيين" لأغراض انتخابية، فقد شارك في الحكومة معهم لإنقاذ النظام البرجوازي.

وبسبب أن ميزان القوى منع الطبقة السائدة من سحق الطبقة العاملة، فقد سعت إلى نزع سلاحها وتشتيتها، وفي النهاية استنزافها بالاعتماد على تواطؤ قادة الحركة العمالية. وكانت تلك هي السيرورة التي وصفها تيد غرانت آنذاك، استنادا إلى تحليل تروتسكي للأوضاع في ألمانيا في عهد فايمار، بأنها **"ثورة مضادة في شكل ديمقراطي"**.

الضمان الاجتماعي

للحفاظ على سلطتها، اضطرت الطبقة السائدة أيضا إلى "التراجع" وتقديم سلسلة من الإصلاحات الاجتماعية. أشهرها "الضمان الاجتماعي".

لم يكن ذلك المشروع جديدا، ففي فترة ما قبل الحرب، كان "التكنوقراطيون" البرجوازيون، خريجو المدارس العليا والمقربون من الدوائر المصرفية وكبار الصناعيين، يفكرون في تأميم قطاع التأمين الاجتماعي. كان ذلك بهدف وضع حد للفوضى الناجمة عن المنافسة بين العديد من الشركات الخاصة وشركات التأمين التعاوني. كان هدفهم هو "ترشيد" الرأسمالية الفرنسية لجعلها أكثر قدرة على المنافسة في السوق العالمية. كانوا يعتزمون تحقيق ذلك من خلال دعم القطاع المالي والصناعات الخاصة الكبيرة بخدمات اجتماعية مؤممة مخططة **وفقا لمصالح الطبقة السائدة**.

استند نظام الضمان الاجتماعي الذي أُنشئ بعد التحرير إلى تلك المشاريع. من الواضح أنه مثّل تقدما حقيقيا للعديد من العمال، الذين كانوا محميين نسبيا من الفقر في حالة العجز أو المرض. لكنه كان أيضا ذا أهمية أكيدة للبرجوازية.

كان على تمويل ذلك النظام الجديد أن يتم على قدم المساواة بين العمال وأرباب العمل. لكن في الواقع، كل أرباح أرباب العمل تأتي من العمل غير مدفوع الأجر الذي تقدمه لهم الطبقة العاملة. لذا فإن ذلك النظام "التعاوني" يعني أنه على العمال أداء "الفاتورة" مرتين: المرة الأولى من خلال حصة الثروة التي يستحوذ عليها رب العمل مباشرة، والمرة الثانية من خلال الضرائب ومساهمات الضمان الاجتماعي.

كما أن نظام الضمان الاجتماعي جعل العمال وأصحاب مشاريع التشغيل الذاتي يتحملون العبء المالي للرعاية الصحية، عوض الرأسماليين. وفي الوقت نفسه، كان على الطبقة العاملة أن تتحمل ثقل الجهود المبذولة لإعادة الاقتصاد الفرنسي إلى مساره الطبيعي، بما يعود بالنفع الأكبر على الطبقة السائدة.

مظاهرة أمام مكاتب الحزب الشيوعي الفرنسي في باريس، 20 فبراير 1946

"معركة الإنتاج"

قبل سنة 1939، كانت الصناعة الفرنسية متأخرة كثيرا عن الولايات المتحدة وألمانيا. أدت غارات الحلفاء الجوية، وما تبعها من أعمال التخريب من طرف القوات الألمانية المنسحبة، إلى تدمير الصناعة الفرنسية وشبكة السكك الحديدية. في سنة 1945، لم يتجاوز الناتج المحلي الإجمالي الفرنسي 40% من مستواه قبل الحرب. فصار العديد من أرباب الأعمال والسياسيين يدعون آنذاك إلى تدخل الدولة لامتصاص الخسائر وترشيد الإنتاج.

فتم وضع مناجم الفحم، والعديد من شركات الائتمان، وشركات الغاز والكهرباء، وأكبر أربعة بنوك، والعديد من الشركات الأخرى، تحت سيطرة الدولة. ومع ذلك، فقد ظل الاقتصاد في معظمه تحت الملكية الخاصة. تم تشكيل لجنة للتخطيط، لكن ذلك "التخطيط" كان توجيهيا فقط: فقد شجع الشركات الخاصة على الاستثمار في القطاعات التي حددتها الدولة، وكافأها بالمساعدات المالية والإعفاءات الضريبية.

تم الاكتفاء بتأميم القطاعات "الاستراتيجية" فقط، وذلك لكي يتحمل جميع السكان عبء تعافيها. ثم استُخدمت تلك الشركات والبنى التحتية "المُرشَّدة" لمساعدة الرأسمالية الفرنسية على أن تصبح أكثر تنافسية في السوق العالمية. ثم أُعيدت الغالبية العظمى من تلك الشركات في نهاية المطاف إلى القطاع الخاص، غالبا مقابل ثمن زهيد. وعلى سبيل المثال، فقد تمت خصخصة البنوك منذ أوائل ستينيات القرن الماضي.

تمت جميع عمليات التأميم دون مشاركة العمال، وأحيانا دون حتى تغيير المديرين. ومع ذلك فقد ظهرت بعض تجارب الإدارة العمالية بشكل عفوي. ففي مرسيليا "استولى" الفرع المحلي للكونفدرالية العامة للشغل على 15 شركة بعد اعتقال أو هروب أصحابها "المتعاونين". لكن تلك المبادرة بقيت معزولة؛ حتى أن القيادة الوطنية للحزب الشيوعي الفرنسي أدانتها، واتهمت مناضلي مرسيليا "بالرغبة في إنشاء مجالس سوفييتات"[2]. وفي عام 1947، صوتت الجمعية الوطنية بالإجماع -بمن في ذلك النواب الشيوعيون- على قانون يعيد الشركات المُصادرة إلى أصحابها السابقين ويُعوضهم.

لقد دعم قادة الحزب الشيوعي الفرنسي بكل قوتهم استعادة الرأسمالية الفرنسية، التي وصفوها بـ"معركة الإنتاج". وقالوا إن هذا كله يصب في "المصلحة الوطنية"، لكنه نُفّذ بالطبع على حساب الطبقة العاملة لصالح الرأسماليين. تضاعفت إنتاجية العمل، بين سنتي 1945 و1948، بينما انخفض متوسط القدرة الشرائية بمقدار الثلث. وبين سنتي 1946 و1947 بلغت نسبة التضخم ما يقارب 60%. كان الجوع ما يزال متفشيا، وبقيت "بطاقات التموين" سارية المفعول حتى سنة 1949.

لكن تلك المعاناة لم تمنع الحزب الشيوعي الفرنسي من أن ينصح العمال بـ"الإنتاج أولا، ثم الشكوى لاحقا"[3]. وفي يوليوز 1945، ألقى موريس ثوريز خطابا أمام عمال المناجم في الشمال، والذين كانوا يعملون في مناجم بالغة الخطورة بعد أعمال التخريب التي شنها الألمان، حيث أعلن أن:

«الإنتاج اليوم هو أسمى أشكال الواجب الطبقي، الواجب الفرنسي. بالأمس، كان سلاحنا هو التخريب

جنود سنغاليون في الجيش الفرنسي، 1940

والعمل المسلح ضد العدو؛ أما اليوم فالسلاح هو الإنتاج لإحباط خطط الرجعية».

الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية

خلال مؤتمر برازافيل عام 1944، خلق ديغول آمالا عريضة بحديثه عن "مشاركة السكان الأصليين" مستقبلا في إدارة المستعمرات. وقد قاتل عشرات الآلاف من "السكان الأصليين" في صفوف القوات الفرنسية الحرة (FFL). مثلوا ما يقرب من 60% من قوات "فرنسا الحرة" المقاتلة سنة 1944، وحوالي نصف قتلى المعارك. لكن آمالهم سرعان ما تبددت.

بعد إنزال نورماندي وبروفانس، نظمت هيئة الأركان العامة الفرنسية عملية "غسيل" لقواتها. تم نزع سلاح الجنود المنحدرين من المستعمرات ثم أُعيدوا إلى المستعمرات، حيث كانت الإدارة الاستعمارية بانتظارهم. في تياروي بالسنغال، طالب الجنود المنتمون إلى السكان الأصليين برواتبهم المتأخرة، فتم تنظيم مذبحة ضدهم ذهب ضحيتها العشرات.

في 08 ماي 1945، نظم القوميون الجزائريون مظاهرة في سطيف للاحتفال باستسلام النازيين والمطالبة بالمساواة في الحقوق السياسية، فتم قمعهم بشدة. ثم اندلعت انتفاضة أغرقت في الدماء. ذبح الجيش الفرنسي وميليشيات المستوطنين ما بين 10.000 و40.000 جزائري. وقد وافق الحزب الشيوعي الفرنسي على قمع ما أسماه "مؤامرة فاشية" قادها "محرضون هتلريون". حتى أن صحيفة لومانيتيه، الصادرة في 12 ماي 1945، دعت إلى "العقاب القاسي والسريع لمنظمي التمرد وأتباعهم الذين قاموا بأعمال الشغب".

في 21 شتنبر 1945 أعلن هو شي مينه استقلال فيتنام عن "الهند الصينية الفرنسية". لكن بعد سنة، في نوفمبر 1946، قصف الجيش الفرنسي ميناء هايفونغ، مما أشعل فتيل حرب الهند الصينية. وفي مدغشقر، اندلعت انتفاضة استقلال في مارس 1947. لكنها فشلت، وأدى قمعها إلى مقتل ما بين 11.000 و100.000 شخص. في هاتين الحالتين الأخيرتين، احتج الحزب الشيوعي الفرنسي بشكل ضعيف؛ لكنه مع ذلك بقي في الحكومة، مضحيا بالشعوب المستعمَرة على مذبح "إعادة البناء"، أي إعادة بناء الإمبريالية الفرنسية.

إضرابات عام 1947

في وزارة العمل، دافع الشيوعيون بلا شك عن قانون العمل والضمان الاجتماعي. لكنهم دافعوا أيضا عن العمل المفرط، وحاولوا احتواء الصراع الطبقي عندما عاد إلى الواجهة بعد ثلاث سنوات من "معركة الإنتاج".

في أبريل 1947، اندلع إضراب في مصنع رينو في بولون-بيلانكور -الذي كان قد تأُمم عام 1945- احتجاجا على تخفيض الحكومة لحصص الخبز. أدان الحزب الشيوعي الفرنسي ذلك الإضراب، والإضرابات التي تلته، ووصفها بأنها مناورات "غير مسؤولة"، لأنها تهدد بالإضرار بإنتاجية الشركات المؤممة. لكن سلطة الحزب على الطبقة العاملة آنذاك لم تعد قوية كما كانت في عام 1945. حتى أن عمال رينو المضربين استقبلوا سكرتير نقابة CGT لعمال المعادن، يوجين هيناف، بصيحات الاستهجان في أحد الاجتماعات.

كانت الإضرابات تتزايد، وصار القادة الشيوعيون غير قادرين على إيقافها. وتطورت في بعض المدن إلى غليان: ففي نيفير وليون، اقتحم المتظاهرون مكتب المحافظ.

وبالتالي لم تعد مشاركة الحزب الشيوعي الفرنسي في الحكومة مفيدة للبرجوازية كما كانت في السابق. وصار هذا هو الحال تحديدا بعد أن كانت الحرب الباردة قد بدأت بوضوح. في ماي 1947، تم طرد الحزب الشيوعي الفرنسي من الحكومة بقسوة على يد حلفائه السابقين في حزب الفرع الفرنسي للأممية العمالية (SFIO) وحزب الحركة الجمهورية الشعبية (MRP).

عندها بدأ الحزب الشيوعي الفرنسي ينضم تدريجيا إلى حركة الإضرابات التي كان قد أدانها في البداية، لكن ذلك التحول جاء متأخرا جدا: كانت الحركة قد استنفدت زخمها وبدأت في الانحسار بدءا من دجنبر 1947 فصاعدا. وللقضاء عليها لجأت البرجوازية إلى مزيج من القمع والتنازلات، لا سيما صرف مكافأة عامة قدرها 1500 فرنك وزيادة في التعويضات العائلية.

تلك الهزيمة تركت بصماتها على الحركة. ساعدت تعرجات قيادة الحزب الشيوعي الفرنسي البرجوازية على تقسيم الحركة النقابية. وفي نهاية سنة 1947، انشق الجناح اليميني للكونفدرالية العامة للشغل، بدعم من بعض العصبويين، وأسسوا نقابة "الكونفدرالية العامة للشغل- القوة العمالية" "CGT-Force Ouvrière" التي مولتها الإمبريالية الأمريكية، لكنها بقيت أقلية إلى حد كبير.

في عام 1948 اندلعت حركة إضرابات جديدة بين عمال المناجم في الشمال. ورغم أن الحزب الشيوعي الفرنسي دعمها ولعب دورا رئيسيا في تنظيمها، فإن قيادة الحزب لم تبذل أية محاولة لتوسيع نطاقها لتشمل قطاعات أخرى. أراد القادة الستالينيون استخدام الإضراب كوسيلة ضغط، للتفاوض مع السلطات، وربما حتى العودة إلى الحكومة.

إلا أن الحكومة قمعت إضراب عمال المناجم بوحشية، وأرسلت ضدهم شرطة مكافحة الشغب التابعة للحرس الجمهوري والجيش. تم قتل العديد من المضربين. وانحسرت الحركة أخيرا في نوفمبر 1948.

فرصة ضائعة

كان النضال من أجل التحرير وسنوات ما بعد الحرب فرصة ضائعة للإطاحة بالرأسمالية الفرنسية. كان العمال منظمين على نطاق واسع ومعادين بشدة للنظام البرجوازي، بينما كانت الطبقة السائدة قد فقدت مصداقيتها بسبب تعاونها مع

اعتصام عند منجمي يفغ وسان دومينيك في لا ريكاماري، 20 أكتوبر 1948، أقيم لصد قوات الأمن الجمهوري (CRS)

النازيين وحكومة فيشي.

لو أن الحزب الشيوعي الفرنسي كان حزبا ماركسيا وثوريا حقيقيا، لكان بإمكانه الاستفادة من الحماس الثوري وتعبئة الطبقة العاملة وجماهير الفلاحين لشن هجوم ثوري ضد الرأسمالية. كان من الممكن، على سبيل المثال، الاعتماد على عمليات الاستيلاء العفوية على الشركات -مثل تلك التي حدثت في مرسيليا- لشن حملة حازمة لتأميم المفاتيح الرئيسية للصناعة والبنية التحتية، ووضعها تحت سيطرة الطبقة العاملة.

وبالمثل فإنه لو تم الحفاظ على لجان التحرير والميليشيات الوطنية وتنظيمها على نطاق وطني، لكانت قد شكلت أجهزة دولة عمالية. كان من شأن ذلك أن يسقط الدولة البرجوازية التي كانت قد فقدت مصداقيتها بسبب التعاون مع النازيين، وأن يتم تنفيذ تطهير حقيقي ضد جميع المجرمين الذين تعاونوا مع النازية وبيتان. وعلى الصعيد العالمي، كان مزاج الطبقة العاملة ثوريا إلى درجة أنه كان من غير الممكن للإمبرياليين الأمريكيين والبريطانيين التدخل عسكريا ضد الثورة الاشتراكية في فرنسا.

وبشكل عام، لو أن الحركة العمالية -وعلى رأسها الحزب الشيوعي الفرنسي- كرست كل قوتها لشن نضال ثوري ضد الرأسمالية، لما كان في مقدور الطبقة السائدة فعل أي شيء لإنقاذها. لكن وبدلا من ذلك فقد بادر القادة الستالينيون بنشاط إلى إنقاذ الرأسمالية الفرنسية. دفع الحزب الشيوعي الفرنسي ثمنا باهظا مقابل سياسة التعاون الطبقي تلك. فبين سنتي 1946 و1951، انخفض عدد أعضائه من أكثر من 800 ألف إلى 220 ألفا فقط. كما خسر ما يقرب من مليون ناخب.

واليوم، يجب على كل من يسعى لإسقاط هذا النظام أن يتعلم دروس تلك الخيانة، للنضال من أجل بناء قيادة ثورية للطبقة العاملة، قادرة على مواجهة النضالات الجسام التي تنتظرها، وقيادتها إلى النصر في النهاية.

1: *France D'abord*, October 1942, our translation
2: *Les Réquisitions de Marseille (mesure provisoire)* (2004) [Film] Dir. Luc Joulé, Sébastien Jousse, France: Les Productions de l'œil sauvage
3: Qutoted in Michel Pigenet, 'Le PCF à la Libération, une force inédite pour une situation exceptionnelle', Ciné Archives

انضم إلى الأممية الشيوعية الثورية!

marxy.com/?p=4838

1945: تغير ميزان القوى في أوروبا

يسرنا في هذا العدد إعادة نشر مقال "تغير ميزان القوى في أوروبا" الذي كتبه تيد غرانت في مارس 1945. قيمة وأهمية هذا المقال متضمنة فيه في حد ذاته، إلا أننا ننشر أيضا المقدمة التالية لتزويد القارئ بالسياق الذي كتب فيه.

مقدمة:

أعلنت نهاية الحرب العالمية الثانية عن بداية حقبة جديدة نوعيا في تاريخ العالم. وفي مثل هذه الأوقات، من الضروري أن يعمل الثوريون على تقييم التغيرات الجارية، من أجل تطوير منظور واستراتيجية صحيحين.

كانت قيادة الأممية الرابعة حتى ذلك الوقت ما تزال تستند إلى التوقعات التي قدمها تروتسكي قبل اغتياله عام 1940، وهي: أن القضاء على الستالينية سيتم إما من خلال ثورة مضادة رأسمالية أو بواسطة ثورة سياسية للطبقة العاملة؛ وأن الأحزاب الستالينية والاشتراكية الديمقراطية في الغرب ستفقد مصداقيتها تماما، هذا إذا لم تتعرض للخراب؛ وسوف تجتاح أوروبا والعالم موجة ثورية، والتي في سياقها سيصير في مقدور الأحزاب الصغيرة للأممية الرابعة أن تتحول إلى أحزاب ثورية جماهيرية للطبقة العاملة.

ونتيجة لذلك فقد استبعدت جميع أحزاب الأممية امكانية استقرار الديمقراطية البرجوازية، سواء أثناء الحرب أو بعدها. وبدلا من ذلك، كان المنظور هو الأزمة الاقتصادية، والدكتاتورية البونابرتية، والثورات والثورات المضادة.

تنبؤات تروتسكي بحدوث موجة ثورية في جميع أنحاء أوروبا تأكدت بشكلٍ مذهل. إذ حتى قبل نهاية الحرب عام 1945، انفجرت حركات ثورية ملهمة للعمال والفلاحين المسلحين في اليونان ويوغوسلافيا وإيطاليا وفرنسا. وساد مزاج ثوري في جميع أنحاء أوروبا.

ومع ذلك فإن الستالينية خرجت من الحرب أقوى بكثير، وليس أضعف. كما أن الجيش الأحمر تمكن من تحطيم آلة الحرب النازية، وتغلغل في أعماق أوروبا، ليصبح القوة الحقيقية

الوحيـدة في أوروبـا الشرقيـة.

وحتـى خـارج نطـاق نفـوذ الاتحـاد السـوفياتي، كانـت الجماهـير تنظـر إلى الاتحـاد السـوفياتي والجيـش الأحمـر باعتبارهـما القـوة التـي هزمـت الفاشـية في أوروبـا. وبنـاء عـلى ذلـك فقـد حظيـت الأحـزاب الشـيوعية السـتالينية، التـي كانـت قـد لعبـت هـي أيضـا دورا هامـا في النضـال السـري ضـد الاحتـلال النـازي، بشـعبية هائلـة.

وبالمثـل فـإن الأحـزاب الاشـتراكية الديمقراطيـة، اسـتقطبت بدورهـا شريحـة مـن الطبقـة العاملـة. كان العـمال ينظـرون إلى منظماتهـم التقليديـة مـن أجـل تحقيـق تحسـينات جذريـة في ظروفهـم، بعـد الدمـار الـذي خلفتـه الحـرب وسياسـة التقشـف التـي صاحبتهـا.

تعـد مقالـة تيـد غرانـت درسـا معمقـا في كيفيـة تطبيـق المنهـج الماركـسي عـلى مثـل ذلـك التحـول الهائـل في الوضـع العالمـي. شرع غرانـت في تحليـل الظـروف الماديـة والعلاقات الملموسـة عـلى أرض الواقـع، دون فـرض أفكار مسـبقة عـلى الواقـع. اعتـبر كل التوقعـات التـي وردت في المقالـة، والتـي كتبـت قبـل انتهـاء الحـرب، بأنهـا مؤقتـة، ويجـب التحقـق منهـا بدقـة في ضـوء مجـرى الأحـداث الفعـلي.

لعـل أهـم تلـك التوقعـات كان هـو منظور غرانـت لـ"ثـورة مضـادة في شـكل ديمقراطـي" في أوروبـا. أقـر غرانـت بـأن أسـاس الـردة الرجعيـة البونابرتيـة أو الفاشـية قـد تحطـم تمامـا في أوروبـا بفعـل هزيمـة النازيـين وعملائهـم. ولم تكـن جيـوش الحلفـاء المحتلـة قـادرة عـلى توفـير مثـل تلـك القاعـدة.

لم يعـد بإمـكان الطبقـة السـائدة، في ظـل تلـك الظـروف، الاعتـماد عـلى القمـع وحـده، بـل كانـت مضطـرة إلى الاعتـماد عـلى قـادة الطبقـة العاملـة السـتالينيين والاشـتراكيين الديمقراطيـين، مـن أجـل تثبيـت سـيادة الرأسـمالية.

وبدمجهـا لوعـود بالإصلاحـات الديمقراطية والاجتماعيـة مـع محـاولات تفكيـك الهيئـات الثوريـة للطبقـة العاملـة المسـلحة التـي بـرزت خـلال النضـال ضـد الفاشـية، سـتحول الطبقـة السـائدة وعملاؤهـا الحركـة نحـو قنـوات آمنـة بالنسـبة للرأسـمالية.

تأكـد هـذا المنظـور تمامـا في جميـع أنحـاء أوروبـا. وحدهـا اليونـان التـي انتهجـت فيهـا الإمبرياليـة البريطانيـة وأتباعهـا مسـار الحـرب الأهليـة والدكتاتوريـة الدمويـة ضـد العـمال والفلاحـين. لكـن وحتـى هنـاك، لم يـأتِ التحـول نحـو المواجهـة المفتوحـة العنيفـة إلا بعـد أن قـام القـادة السـتالينيون بتقييـد العـمال والفلاحـين المسـلحين بحكومـة انتقاليـة "ديمقراطيـة" برجوازيـة.

كـما توقـع غرانـت بـأن البيروقراطيـة السـتالينية في الاتحـاد السـوفياتي يمكنهـا، بسـبب خطـر مناورات الإمبرياليـين، أن تتجـه نحـو تأميـم اقتصادات بلـدان أوروبا الوسـطى والشرقيـة التـي حررهـا الجيـش الأحمـر. لم يكـن هـذا المنظـور واضحـا بـأي حـال مـن الأحـوال في عـام 1945، عندمـا كانـت سياسـة سـتالين هـي الحفـاظ عـلى الرأسـمالية في ظـل مـا يسـمى بأنظمـة "الديمقراطيـة الشـعبية".

ومـن التوقعـات الأخـرى التـي طرحهـا المقـال منظـور غرانـت بـأن الفـترة التـي تنتفتـح في عـام 1945 سـتكون شـبيهة بفـترة 1917- 1921 في أوروبـا، أو 1931- 1939 في إسـبانيا. وقـد اسـتند ذلـك التوقـع إلى عـدد مـن العوامـل المختلفـة التـي كانـت موجـودة وقـت كتابـة المقـال.

كان الاقتصـاد الأوروبي بأكملـه في حالـة خـراب. وكان نقـص الغـذاء والسـكن عامـا. وتـم تقسـيم ألمانيـا بـين القـوى المنتـصرة، وتفكيـك صناعاتهـا حرفيـا ونقلهـا كغنائـم حـرب. في الوقـت نفسـه كان الاتحـاد السـوفياتي قـد غـزا نصـف أوروبـا، ومكنـت حـرب التحريـر الوطنـي تيتـو والحـزب الشـيوعي مـن الوصـول إلى السـلطة في يوغوسـلافيا.

لذلـك طـرح غرانـت منظـورا مفـاده أن عمـق الأزمـة والمطالـب الملحـة للجماهـير التـي لم تتعـرض للهزيمـة، والـصراع المتزايـد بـين الإمبرياليـة الأمريكيـة والاتحاد السـوفياتي، مـن شـأنه أن يضـع موجـات أخـرى مـن الثـورات والثـورات المضـادة عـلى جـدول الأعـمال.

إلا أن خطـر الانهيـار الاقتصـادي والثـورة الاشـتراكية هـو، عـلى وجـه التحديـد، الـذي دفـع الإمبرياليـة الأمريكيـة إلى تطبيـق مـا أصبـح يعـرف باسـم خطـة مارشـال؛ وهـو التحـول السـياسي الهائـل والتاريخـي الـذي لم يكـن في مقـدور أحـد أن يتوقعـه عـام 1945.

في يونيـو 1947، ألقـى وزيـر الخارجيـة الأمريـكي، جـورج سي مارشـال، خطابـا في الكونغـرس، قـال فيـه إن أوروبـا «يجـب أن تحصـل عـلى مسـاعدة إضافيـة كبـيرة وإلا سـتواجه تدهـورا اقتصاديـا واجتماعيـا وسياسـيا بالـغ الخطـورة».

أدركـت الإمبرياليـة الأمريكيـة ضرورة إعـادة بنـاء الاقتصـاد الأوروبي مهـما كان الثمـن. وإلا سـتقع ألمانيـا أولا، ثـم أوروبـا بأكملهـا، في دائـرة النفـوذ السـوفياتي.

في أبريـل 1948 صـار "مـشروع مارشـال" بمثابـة قانـون. وعـلى مـدى السـنوات الأربـع التاليـة، تـم إرسـال 13,3 مليـار دولار (مـا يعـادل 175,3 مليـار دولار بأسـعار عـام 2025) إلى أوروبـا، معظمهـا عـلى شـكل منـح. ذلـك التدفـق مـن المسـاعدات الماليـة سرع بشـكل كبـير الانتعـاش الاقتصـادي بعـد الحـرب، وأدى الانتعـاش الـذي أعقـب ذلـك إلى اسـتقرار الرأسـمالية الأوروبيـة لأكـثر مـن 20 عامـا.

في الواقـع، لقـد أثـار غرانـت إمكانيـة هـذا التحـول في مقالتـه "منظـورات اقتصاديـة 1946"، وحلـل تلـك السـيرورات تحليـلا وافيـا عـلى مـدى السـنوات التاليـة.

نحـن نشـجع القـراء عـلى دراسـة كتابـات تيـد غرانـت التـي تعـود إلى تلـك الفـترة (والتـي يمكـن الاطـلاع عليهـا عـلى الموقـع org.tedgrant.www) مـن أجـل فهـم أعمـق لتلـك السـيرورات أثنـاء تطورهـا.

ومـع ذلـك فليـس هنـاك مـن مقـال للبـدء بـه أفضـل مـن هـذا المقـال. ففيـه شرح لجـذور نظـام مـا بعـد الحـرب، الـذي نشـهد انهيـاره اليـوم، وكذلـك لأنـه يظهـر المنهـج الماركـسي الأصيـل، وهـو مـا يجعـل مـن هـذه المقالـة مرجعـا كلاسـيكيا بحـق.

هيئة التحرير - أبريل 2025

تشرشل وروزفلت وستالين فى مؤتمر يالطا، 9 فبراير 1945

تغير ميزان القوى في أوروبا

تفتح نهاية الحرب مرحلة جديدة من التطورات العسكرية والدبلوماسية والاقتصادية والسياسية في العالم.

وقد أدت الهيمنة الاقتصادية والعسكرية الساحقة للاتحاد السوفياتي في الشرق، وللإمبريالية الأمريكية، مع تابعها البريطانية في الغرب، في النهاية إلى سحق الإمبرياليتين الألمانية واليابانية.

وخلف جيوش "الحلفاء" المنتصرة، يجتمع "الثلاثة الكبار" [الولايات المتحدة الأمريكية، بريطانيا، الاتحاد السوفيتي - المحرر] مع وزراء خارجيتهم ومستشاريهم، ويناقشون ويتوصلون إلى اتفاقيات دبلوماسية سرية لتقسيم أوروبا والعالم إلى مناطق نفوذ ومناطق استغلال. الدول التابعة يتم استدعاؤها إلى مجالس الأمم المتحدة، لكن فقط من أجل خلق واجهة وإضفاء المصداقية على القرارات التي تم التوصل إليها من خلال المساومات الصعبة وراء الكواليس من جانب الثلاثة الكبار.

ومع ذلك فإن الخوف من الثورة البروليتارية في ألمانيا وفي أوروبا ككل، وليس في أوروبا فقط بل في المناطق المستعمَرة في الشرق، يطغى على الترتيبات العسكرية والدبلوماسية. هذه المشكلة الأساسية، التي تتطلب مرارا حلا حاسما، سرعان ما تصبح الشغل الشاغل للقوى الكبرى الثلاث. في الواقع إن النقطة المحورية في التحالف التي توحد "الثلاثة الكبار" معا، وستستمر في توحيدهم في المستقبل، هي هذا الخوف من الثورة والانشغال بخطط لدرء أو قمع الانتفاضات الثورية الحتمية في ألمانيا وأوروبا، والتي ستسعى إلى تدمير النظام الرأسمالي القديم.

إن العلاقة المتغيرة بين القوى العالمية منذ معاهدة فرساي، والتي كانت مخفية في التحول التدريجي الذي شهدته بين الحربين العالميتين، تتجلى الآن بوضوح في المصائر العسكرية للأمم.

وقد ساهم تدمير الجيش الفرنسي، الذي كان في يوم ما أكبر قوة عسكرية في أوروبا؛ وتفكك الإمبراطورية الفرنسية؛ والدور البائس الذي لعبته الطبقة السائدة في فرنسا خلال الاحتلال النازي باعتبارها مجرد خونة في خدمة الغزاة؛ في تسليط الضوء على تراجع فرنسا من مكانة قوة عظمى إلى دور قوة من الدرجة الثالثة في أوروبا والعالم.

لقد انفجرت فقاعة الادعاءات الإمبراطورية، التي روجت لها الطبقة السائدة الإيطالية على نطاق واسع من خلال جحافلها المتبخترة ذات القمصان السوداء، وتحطمت بشكل كامل. فالقاعدة الاقتصادية الضعيفة وغير الكافية، العاجزة عن تحمل أدنى ضغط، تصدعت عند أول اختبار. وتقلصت إيطاليا إلى مجرد بلد مفكك.

لقد غيرت الحرب تماما أهمية الأمم، في كل من شرق أوروبا وغربها، في تحالف القوى الجديد. فبولندا، وتشيكوسلوفاكيا، وبلدان البلطيق والبلقان، وبلجيكا، وهولندا، والبلدان الاسكندنافية، كلها صارت ذات وزن ودور أقل في "مجالس الأمم".

وأدى انهيار الهيمنة البريطانية على العالم؛ وعجز بريطانيا عن الحفاظ على مكانتها في أوروبا أو التدخل بشكل حاسم في الصراعات العسكرية؛ وتبعية قادتها العسكريين في أوروبا لرعاتها الأمريكيين؛ وتراجعها العام في علاقتها بحلفائها الروس والأمريكيين، إلى وضع بريطانيا بسرعة في مكانتها الحقيقية في العلاقة مع القوى الأخرى، باعتبارها: "أكبر الأمم الصغيرة".

إن دخول الإمبريالية الأمريكية إلى الساحة العالمية، بمواردها الاقتصادية والعسكرية الهائلة، وضعها فورا في طليعة الأمم الإمبريالية. وثقل قوتها الاقتصادية والعسكرية يضمن لها موقعا مهيمنا سواء

في الشرق أو الغرب. فالمحيط الهادئ يتحول بسرعة إلى "بحيرة أمريكية"، بينما تتجه المستعمرات البريطانية نحو الدولار، وتبقى مرتبطة بالوطن الأم اسميا فقط.

انبعاث روسيا من الحرب

لكن الحدث الأعظم أهمية على الصعيد العالمي هو بروز روسيا، لأول مرة في التاريخ، باعتبارها أعظم قوة عسكرية في أوروبا وآسيا. لقد أجبرت الانتصارات الهائلة التي حققها الجيش الأحمر في أوروبا غالبية البرجوازيات الأوروبية على التوجه نحو الكرملين؛ في حين خلقت الحركة الموالية للاتحاد السوفياتي من جانب الجماهير قاعدة دعم قوية له.

لم تتبق في أوروبا اليوم أي قوة قارية يمكنها تحدي الجيش الأحمر. كما أنه من غير الممكن في غضون سنوات قليلة إنشاء قوة عسكرية قادرة، ماديا ومعنويا، على خوض مثل هذا التحدي. ولن يكون من الممكن إعادة تجميع قوى الرأسمالية الأوروبية لشن هجوم مناهض لروسيا إلا في حالة حدوث هزيمة ساحقة للطبقة العاملة الأوروبية، والتدمير الكامل لمنظماتها، وتدخل ردة رجعية أمريكية قاتمة.

إن إرهاق الجماهير في جميع البلدان، وخاصة في أوروبا؛ والإعجاب بالجيش الأحمر ودعمه؛ والتعاطف والدعم الحار للاتحاد السوفياتي بين قطاعات واسعة من الطبقة العاملة، حتى في الولايات المتحدة، كل هذه العوامل مجتمعة مع ميزان القوى العسكرية الحالي، تجعل من الصعب للغاية، إن لم يكن من المستحيل تماما، على الحلفاء شن هجوم على الاتحاد السوفياتي في السنوات التي تلي مباشرة الحرب.

إن مخاطر مثل تلك العملية كبيرة للغاية في آثارها السياسية، ليس فقط في أوروبا أو آسيا حيث ستدعم الجماهير الاتحاد السوفياتي، بل حتى في بريطانيا وأمريكا أيضا. فمن الناحية الأيديولوجية، لن يكون من الممكن تعبئة الجماهير لمثل تلك الحرب التي من شأنها أن تكشف طبيعة الصراع السابق ضد دول المحور.

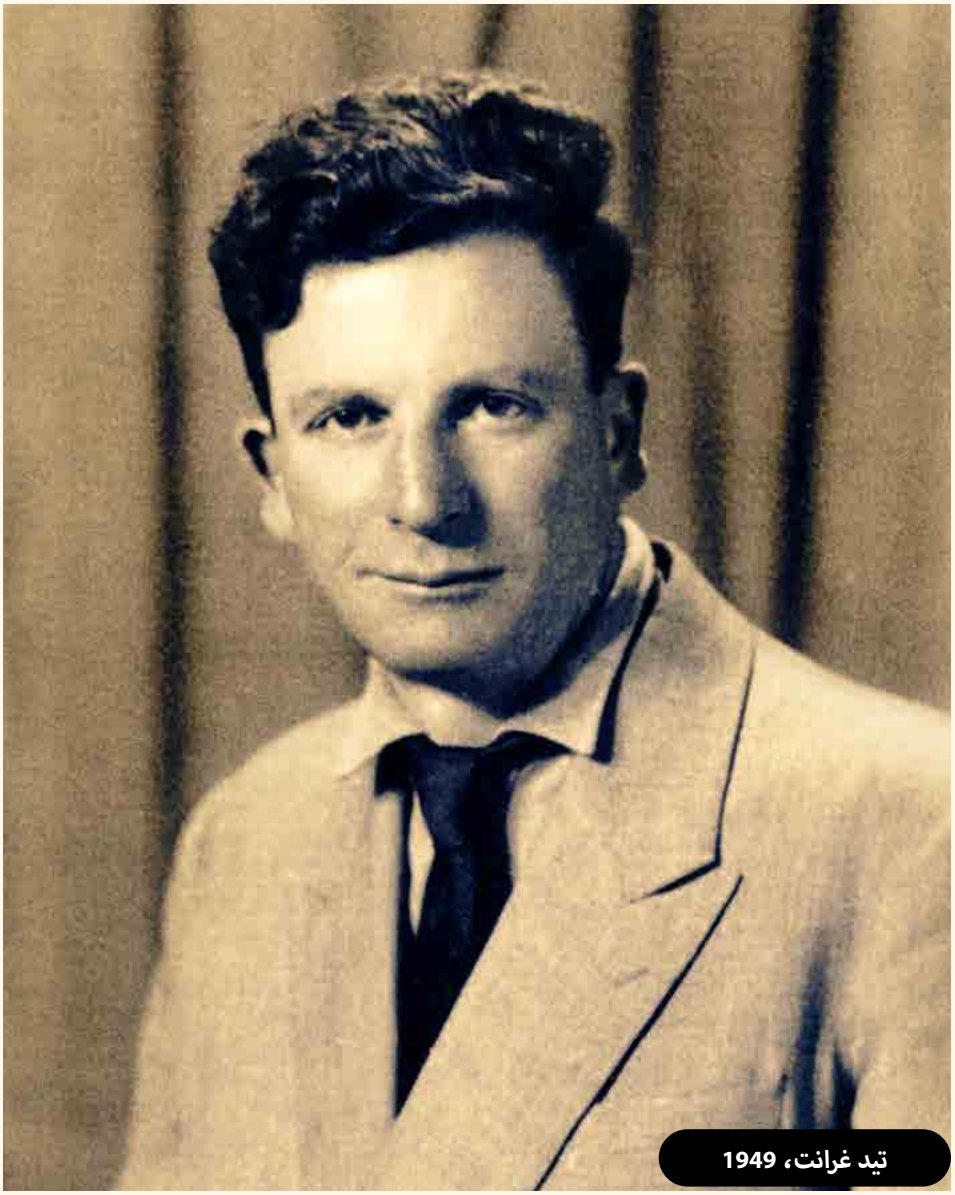

تيد غرانت، 1949

وعلاوة على ذلك فإن مثل تلك الحرب ستطول حتما بسبب القوة العسكرية للاتحاد السوفياتي، مما سيؤدي إلى انفجارات ثورية في جميع أنحاء العالم. وبالتالي فإن الحلفاء سيضطرون، خلال المرحلة القادمة، وعلى الرغم من الخصومات، إلى تحمل توقيع صفقة مع الاتحاد السوفياتي.

فشل مخططات الإمبرياليين

توقعت الإمبريالية الألمانية بثقة أنه بمقدورها تفكيك الدولة السوفياتية وتدميرها؛ بينما توقع الإمبرياليون الأنجلو-أمريكيين وأملوا في سقوط الاتحاد السوفياتي، لكنهم أرادوا، في الوقت نفسه، استخدام روسيا لكسر شوكة الإمبريالية الألمانية، لكي يخرجوا هم المنتصرين. لقد توقعوا أن يخرج الاتحاد السوفياتي على الأقل منهكا وضعيفا بشكل حاسم، وبالتالي عاجزا عن مقاومة المطالب والإملاءات التي خططوا لفرضها عليه.

لكن حساباتهم أخطأت. فمن النتائج البارزة للحرب الإمبريالية الصعود الحاسم للاتحاد السوفياتي من دولة متخلفة إلى أعظم قوة عسكرية في قارة أوروبا. لقد قلب ذلك جميع حسابات الإمبرياليين من كلا المعسكرين، وأثار قلقا شديدا في جميع حكومات العالم.

تحولت الحرب في أوروبا، في جزء كبير منها، إلى حرب بين ألمانيا، المسلحة بموارد أوروبا بأكملها، وبين الاتحاد السوفياتي. وقد خرجت روسيا منتصرة من ذلك الاختبار الحاسم.

للبيروقراطية الستالينية هدفان من احتلالها لبلدان أوروبا الشرقية وهما: استعمالها كموقع دفاعي استراتيجي ضد حلفائها، والسيطرة على شعوب البلقان

من النتائج البارزة للحرب الإمبريالية الصعود الحاسم للاتحاد السوفياتي من دولة متخلفة إلى أعظم قوة عسكرية في قارة أوروبا. لقد قلب ذلك جميع حسابات الإمبرياليين من كلا المعسكرين.

وأوروبا الوسطى ونهبها واستعبادها لصالح البيروقراطية نفسها. إلا أن دخول الجيش الأحمر إلى أوروبا الشرقية أثار حراكا واسعا بين فئات واسعة من العمال والفلاحين المضطهَدين. وقد استغلت البيروقراطية الستالينية تلك الحركات لترسيخ سيطرة عملائها على حكومات في تلك البلدان. في غضون ذلك، ومن أجل إرضاء حلفائه، حافظ ستالين على الرأسمالية في المناطق الخاضعة لسيطرته والتي لم تدمج في الاتحاد السوفياتي، مع تقديم تنازلات للفلاحين في مجال الإصلاح الزراعي.

والسبب الآخر وراء الاحتفاظ بالرأسمالية في المناطق المحتلة يكمن في خوف البيروقراطية من العواقب الحتمية لتحريك قوى الثورة البروليتارية، حتى في صورة كاريكاتورية في البلقان وفي جميع أنحاء قارة أوروبا. فالوضع الشديد الانفجار يعني امتداد الحركة خارج سيطرة البيروقراطية، ويهدد بتداعيات هائلة على الجيش الأحمر وعمال وفلاحي الاتحاد السوفياتي.

وهكذا فإن احتلال ألمانيا وأوروبا الشرقية يخدم، بالنسبة للبيروقراطية، غرضا مزدوجا: فهو يهدف إلى الدفاع عن الاتحاد السوفياتي بأساليب تخدم الأهداف والاحتياجات الرجعية للبيروقراطية الستالينية. وهذه الأساليب لا علاقة لها باللينينية، بل هي في الواقع نفي لها. أما فيما يتعلق بالثورة الأوروبية، فإن الاحتلال السوفياتي يهدف إلى خنق الثورة البروليتارية وتدميرها.

ومع سقوط الإمبريالية الألمانية، أصبح الدفاع عن الاتحاد السوفياتي، الذي كان يحتل سابقا الأهمية الأولى في مهام بروليتاريا الاتحاد السوفياتي فيما يتعلق بالحرب، يفسح المجال الآن للدفاع عن الثورة الأوروبية ضد البيروقراطية السوفياتية. إن الجيش الأحمر يستخدم كسلاح للثورة المضادة في أيدي البيروقراطية البونابرتية. فسياسة البيروقراطية الستالينية المعادية للثورة تشكل، بالنسبة للبروليتاريا الأوروبية، خطرا مميتا.

ومع ذلك فإن الوضع محفوف بخطر مميت على البيروقراطية الستالينية. عمال وفلاحو الجيش الأحمر سوف يتآخون بشكل حتمي مع عمال وفلاحي البلدان المحتلة. وسيدرك الجنود زيف الدعاية البيروقراطية فيما يتعلق بالأوضاع في البلدان الأخرى مقارنة بتلك الموجودة في روسيا.

وبشكلٍ عام، يمكن القول إنه في الفترة المقبلة، إما أن يكون بقاء الرأسمالية في بلدان أوروبا الشرقية والوسطى التي احتلها الاتحاد السوفياتي نقطة انطلاقٍ لاستعادة الرأسمالية داخل الاتحاد السوفياتي نفسه، من خلال منح البيروقراطية فرصة امتلاك وسائل الإنتاج؛ أو أن البيروقراطية ستضطر، رغما عنها، وعلى الرغم من خطر استعداء حلفائها الإمبرياليين الحاليين، إلى تأميم الصناعات في البلدان المحتلة بشكل دائم، والتحكم فيها من أعلى، ودون مُشاركة الجماهير إن أمكن.

إن الأممية الرابعة، وبينما ستستمر في شرح طبيعة الاتحاد السوفياتي وضرورة الدفاع عنه ضد الإمبريالية العالمية، ستشرح الدور المعادي للثورة الذي تلعبه البيروقراطية في علاقتها بالثورة الأوروبية والعالمية. تكمن المهمة الرئيسية للدفاع عن الاتحاد السوفياتي، في المرحلة التالية، في الدفاع عن الثورة الأوروبية ضد مؤامرات البيروقراطية الستالينية مع الإمبريالية العالمية. وحيثما يُستخدم الجيش الأحمر، الذي ما يزال تحت سيطرة البيروقراطية كأداة لتنفيذ سياساتها، لسحق وتدمير حركة الجماهير نحو الثورة، أو لقمع انتفاضات العمال وتمرداتهم، فإن الأممية الرابعة ستدعو العمال لمعارضة الجيش الأحمر بكل ما أوتوا من قوة، بما في ذلك الإضرابات والقوة المسلحة، وما إلى ذلك. مع مناشدة جنود الجيش الأحمر لتذكر رسالة ثورة أكتوبر ودعوتهم للانضمام إلى صف الطبقة العاملة. إن أفضل سبيل للدفاع عن الاتحاد السوفياتي هو امتداد ثورة أكتوبر، وإحياء الديمقراطية السوفياتية داخل الاتحاد السوفياتي.

موقف البيروقراطية الستالينية

تخنق البيروقراطية الستالينية الروسية التطلعات القومية للأقليات القومية داخل الاتحاد السوفياتي. وبينما يُخضع الحزب الشيوعي الثوري النضال من أجل الاستقلال لمهمة الدفاع عن الاتحاد السوفياتي، فإنه يدافع عن حق الأقليات الأوكرانية والبلطيقية وغيرها من الأقليات السوفياتية في الانفصال عن الاتحاد السوفياتي الستاليني وتشكيل دول اشتراكية مستقلة. إلا أن الانفصال يبقى حلما رجعيا إلا إذا تم النظر إليه باعتباره جزء من النضال من أجل الديمقراطية السوفياتية، وإسقاط الستالينية، وتوحيد الاتحاد السوفياتي الديمقراطي مع الولايات الاشتراكية المتحدة في أوروبا.

خلال مسار الحرب، تلقى انفصال فئة البيروقراطية عن الجماهير وتعاليها عليها زخما هائلا. لم يبق من مكاسب أكتوبر سوى المكسب الأساسي وهو: الملكية العامة المؤممة. لقد انتقلت السلطة من أيدي البيروقراطية المدنية إلى يد البيروقراطية العسكرية وعلى رأسها كوكبة من المارشالات. وتجري سيرورات متناقضة في الاتحاد السوفياتي. فمن جهة سرَّع مسار الحرب من سيرورة تبلتر شريحة

الجبهات الأوروبية في ماي 1945. **SCAEF**: القيادة العليا للحلفاء للقوات الاستكشافية.
SACMED: القيادة العليا لقوات الحلفاء في حوض المتوسط. **YANL**: جيش التحرير الوطني اليوغوسلافي

جديدة من السكان، من النساء وحتى الأطفال. وهكذا، لم يعد عدد البروليتاريين السوفييت يقل اليوم عن عدد البروليتاريين في الولايات المتحدة. ومن جهة أخرى فقد صار الاختلاف بين البيروقراطية والجماهير يتخذ طابعا رأسماليا أكثر فأكثر.

وهكذا فقد بدأ يتكشف اتجاهان متعارضان: النزعات الرأسمالية تتجه أكثر فأكثر نحو الغرب الرأسمالي، الذي تبنت البيروقراطية السوفياتية رذائله بشكل كامل. أما الجماهير السوفياتية فتدرك جيدا جرائم البيروقراطية، وتكُنّ لها كراهية شديدة. وغدا سيطالب العمال والفلاحون والجنود البيروقراطية السوفياتية بالحساب. لا شك أن انتصارات الجيش الأحمر قد غرست في الجماهير السوفياتية حماسا وثقة بالنفس هائلين. لن يقبلوا بسهولة إملاءات البيروقراطية وذرائعها بعد أن تراجع خطر التدخل الرأسمالي. لقد انتشلت الحرب والكفاح الجبار جماهير الشعب من يأسها ولامبالاتها. وكانت الحرب وسيلة لإحداث ثورة في المجتمع السوفياتي، لا تقل عن تلك التي شهدتها البلدان الرأسمالية.

تعد انتصارات الاتحاد السوفياتي مكسبا ثمينا للثورة العالمية، سواء من حيث آثارها على الجماهير في أوروبا والعالم، أو من حيث الحفاظ على الاقتصاد المؤمم. لكن من الضروري أن تفهم الطبقات العاملة هذه السيرورة المزدوجة والمتناقضة.

فمن جهة تعيد انتصارات الجيش الأحمر صدى ثورة أكتوبر إلى أذهان الجماهير الأوروبية؛ ومن جهة أخرى تستخدم البيروقراطية الجيش الأحمر وعملاءها -الأحزاب الشيوعية- لخنق الثورة البروليتارية.

ومن وجهة نظر اقتصادية بحتة، فإنه حتى مع التجاوزات البيروقراطية وخنق مبادرة الجماهير، من المرجح أن يكون في مقدور الاتحاد السوفياتي إعادة الإنتاج، في غضون بضع سنوات، إلى المستوى الذي كان عليه قبل الحرب.

من الممكن الحفاظ على المزيد من النجاحات الاقتصادية، لكن هذا لا يعني أن الحرب لم تخلف آثارا عميقة على الحياة الاقتصادية السوفياتية، أو أن التطورات الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي بعد الحرب ستتم بسلاسة ودون أزمات.

خلال السنوات الأربع الماضية، تكيف الاقتصاد بأكمله مع إنتاج شبه حصري للمعدات الحربية. لكن النتائج الإنتاجية الباهرة لم تتحقق إلا بثمن باهظ -تآكل الآلات، تحطيم الصناعات الاستهلاكية، وإرهاق العمال. وبالتالي فإننا نتوقع في المستقبل أزمات حادة ناجمة عن

التفاوتات داخل الاقتصاد السوفياتي؛ وأزمات كتلك التي حدثت في سنوات ما قبل الحرب، والتي لا يمكن لأي قدر من "التخطيط" من جانب البيروقراطية التغلب عليها، لأنها ترجع أساسا إلى أن الاقتصاد المؤمم للاتحاد السوفياتي اقتصاد معزول وليس اقتصادا منفتحا على العالم.

والتفاوتات التي كانت قائمة بالفعل بين مختلف فروع الاقتصاد السوفياتي، بين الصناعة الخفيفة والثقيلة، وبين الصناعة والزراعة، قد تفاقمت بشكل كبير نتيجة للحرب.

وعلى وجه الخصوص فإن وضع الفلاحة، التي لم تتعاف حتى سنة 1941 بشكل كامل من ويلات فترة التجميع القسري، والتي دمرتها الحرب الحالية إلى حد كبير، سيطرح مشاكل لا يمكن حلها بشكل نهائي في إطار اقتصاد الاتحاد السوفياتي المنعزل.

ومع ذلك فإن مزايا الاقتصاد المؤمم تجعل من الممكن، رغم تلك التناقضات الاقتصادية وفي ظلها، تحقيق إنجازات إنتاجية عظيمة على نطاق وسرعة يفوقان بكثير قدرات حتى أكثر الدول الرأسمالية تقدما.

لقد بلغت التباينات داخل الاتحاد السوفياتي أبعادا تجعل المنظورات تنقسم إلى ثلاثة احتمالات:

1. من غير المستبعد نظريا أن تتمكن البيروقراطية، في ظل اقتصاد صاعد، من الحفاظ على بقاءها لسنوات أخرى؛
2. أن يؤدي المزيد من انحطاط البيروقراطية السوفياتية إلى تمهيد الطريق لاستعادة الرأسمالية؛
3. أن يؤدي النهوض البروليتاري إلى الإطاحة بالبيروقراطية واستعادة الديمقراطية السوفياتية.

إن برجوازية العالم، وعلى رأسها الإمبريالية الأنجلو- أمريكية، تراهن بكل قوتها على الانحطاط الداخلي الذي يحدث داخل الاتحاد السوفياتي. وتأمل تلك البرجوازية أن يؤدي الضغط الاقتصادي الخارجي والردة الرجعية الداخلية، إلى

"معدن أكثر، أسلحة أكثر!" (1941) لنيكولاي أففاكوموف

استعادة الرأسمالية في الاتحاد السوفياتي. وعلى أساس انتصار الرجعية في أوروبا وآسيا سوف يعملون، في نهاية المطاف، على استعادة الرأسمالية بالوسائل العسكرية إذا لزم الأمر.

لكنهم في هذه الأثناء، ورغم المواجهات الحادة، مضطرون إلى تأجيل تسوية هذا الحساب والاستعانة بخدمات الكرملين لخنق الثورة، التي تهدد بشكل مباشر وفوري وجود الرأسمالية في أوروبا وآسيا. وهكذا فإن البرجوازية تستغل اليوم خدمات البيروقراطية، في ساعة الخطر المميت للرأسمالية، من أجل خنق الاتحاد السوفياتي بعد التغلب على الأزمة.

لكن وعلى الرغم من تضخم قوة البيروقراطية، فإن الوضع الحالي يقدم عوامل مواتية لإنعاش سلطة العمال. إن المكتسبات الاقتصادية تتناقض مع قبضة البيروقراطية الخانقة، التي تصير عبئا متزايدا على اقتصاد البلاد. لقد تجلت قوة تقاليد أكتوبر، حتى وإن كانت مغطاة بالقذارة البيروقراطية، في الحرب.

وستكشف الأحداث القادمة عن مفاجآت كثيرة للبرجوازية العالمية وكذلك للبيروقراطية الستالينية. فالملكية الجماعية، التي أظهرت تفوقها في السلم كما في الحرب، تجد نفسها الآن في صراع أشد حدة مع البيروقراطية. وسيتجلى ضعف البيروقراطية الكامل في الأزمة السياسية خلال فترة ما بعد الحرب. إن الصدامات بين العمال والفلاحين والجنود المطالبين بثمار النصر من جهة، وبين مغتصبي السلطة والثروة مسألة حتمية. وفي خضم تلك الصراعات، ستجد البروليتاريا السوفياتية الجبارة، وطليعتها الأممية الرابعة، نفسها من جديد، مستندة إلى تراثها المكون من ثلاث ثورات وحربين منتصرتين.

المسألة القومية في أوروبا

على الرغم من السهولة التي اجتاحت بها آلة الحرب النازية أوروبا بأكملها، فإن بضع سنوات فقط كانت كافية لتكشف أن الغزو كان وهماً. لم يتمكن النازيون من كبح جماح الشعوب المضطهَدة التي عنى لها الغزو فقرا ومجاعة متزايدين، بالإضافة إلى العبء الثقيل لنيْر أجنبي شمولي. وعلى الرغم من غياب برنامج طبقي واضح كأساس لنضالهم، وعلى حساب ضحايا لا حصر لهم، نجحت الجماهير مع ذلك في تقويض الهيمنة النازية على أوروبا.

لقد تعاونت الطبقات السائدة في البلدان المُحتلة، طوعا أو كرها، مع أسيادها النازيين، وأصبحت خادمة وشريكة صغيرة للغزاة. ففي ساعة الهزيمة اتحد أبطال "الكرامة الوطنية" و"الوحدة الوطنية"

مع المضطهِد ضد جماهير أمتهم. فالمصالح الطبقية، مثلها مثل الماء، تجد طريقها الخاص.

وإذا كان النازيون قد نجحوا، بمساعدة الكويسلينغز[1]، وبدعم من قوات الأمن الخاصة (SS) بأساليب تعذيبها وإرهابها، في الحفاظ على سلطتهم الهشة لفترة من الزمن، فذلك بفضل المساعدة التي قدمتها لهم سياسات الاشتراكيين الديمقراطيين والستالينيين. لم يكن من شأن النداء إلى الشوفينية القومية إلا أن يساعد الإمبرياليين الألمان على استقطاب العمال والفلاحين الألمان في "الصراع بين الأعراق"؛ وكان بمثابة دعامة قومية لعصابات النازيين والبرجوازية الألمانية.

وإذ وضع الجنود الألمان أمام خيارين: إما الاستعباد القومي للآخرين أو أن يسقطوا هم أنفسهم تحت نير العبودية القومية، استمروا في العمل باعتبارهم قوات احتلال، بمرارة لا شك فيها. كان من شأن نداء اشتراكي أممي من طرف المنظمات الجماهيرية السرية للطبقة العاملة، أو من طرف قيادة الاتحاد السوفياتي، وتنظيم حملة منهجية للتآخي الطبقي، أن يجد صدى بينهم ويحقق نتائج في أقصى أركان الرايخ الألماني والإمبراطورية النازية. لكن مثل هذا النداء لم يُطلق قط. ولم يتم أبدا تنظيم التآخي والعمل الطبقي المنهج.

موقفنا من حركات المقاومة

لقد بدأت المقاومة المنظمة ضد المضطهِد الأجنبي على يد الستالينيين والاشتراكيين الديمقراطيين وأحزاب البرجوازية الصغيرة وقطاعات من البرجوازية. وداخل تلك المجموعات غير المتجانسة التي شكلت المقاومة، وجدت التناقضات والخصومات الطبقية تعبيرا حادا ومنظما، ووصلت في بعض البلدان إلى حد الحرب الأهلية.

ففي بولندا ويوغوسلافيا واليونان، أدى الانقسام الحاد إلى ظهور حركات مقاومة مزدوجة ومتنافسة. كان زيرفاس وإيديس (EDES) يمثلان الرجعية الرأسمالية والإقطاعية القديمة، التي اعتمدت في مراحل معينة على النازيين في مواجهة تيتو وسيانتوس، اللذين مثّلا الجماهير الكادحة. وكان من الممكن ايجاد هذا الانقسام نفسه، وإن بدرجة أقل، في جميع البلدان المحتلة؛ كما هو الحال في فرنسا، مع الماكي وحركة المقاتلون الفرنسيون والأنصار[2].

وفي خضم الاشتباكات والصراعات المسلحة التي كانت تحدث بين الحين والآخر، اضطر الجناح "اليساري"، أو عناصر المقاومة التي تعتمد مباشرة على القطاعات الثورية من الشعب، تحت ضغط التناقضات الطبقية، إلى الاصطدام بالعناصر التي تمثل البرجوازية. ورغم السياسة "الوطنية" غير الطبقية الخيانية التي انتهجتها القيادة، فقد مثلت الحركة سعي الجماهير وضغطها من أجل ايجاد حل طبقي؛ وبالتالي، كان من واجب الاشتراكيين الثوريين تقديم دعم نقدي للجناح اليساري في مواجهة اليمين.

لكن حتى الجناح اليساري لحركة المقاومة لم يكن قائما على لجان واسعة، بل على اتفاق بين الأحزاب. وبصفته تلك، كان كتلة من الأحزاب، وكان، خاصة أمام دور الكويسلينغز الذي مارسته أغلبية مكونات البرجوازية، صورة كاريكاتورية للجبهة الشعبية. لكن وعلى الرغم من دعم آلاف المقاتلين البروليتاريين المخلصين، الذين رأوا في تلك القطاعات اليسارية من حركة المقاومة تعبيرا عن تطلعاتهم الطبقية، فإن برنامج وقيادة ونشاط كتلة المقاومة، ذات التوجه البرجوازي الصغير الشوفيني، جعل منها عميلة مباشرة للإمبريالية.

في خضم الحرب الإمبريالية، كانت جميع الظروف الموضوعية تؤدي إلى أنه لا يمكن القيام بنضال حقيقي من أجل التحرر الوطني وكسر التحالف مع الإمبريالية إلا على أساس برنامج اشتراكي تحت شعار الولايات المتحدة الاشتراكية الأوروبية. بينما كان النضال المنظم على أي أساس آخر، على أساس سياسة كلا جناحي المقاومة، بمثابة مساعدة لهذه الكتلة الإمبريالية أو تلك في خضم الحرب.

1. الكويسلينغز: Quislings تسمية قدحية كانت تطلق على سكان البلدان المحتلة المتعاونين مع النازيين. المترجم.
2. نابليون زيرفاس زعيم الرابطة الوطنية الديمقراطية اليونانية (EDES)، التي شاركت في مقاومة النازيين، لكنها أصبحت أداة للإمبريالية البريطانية والنظام الملكي اليوناني خلال الحرب الأهلية (1944-1949). ترأس جورج سيانتوس الحزب الشيوعي اليوناني (KKE) بين عامي 1942 و1945. قاد تيتو (جوزيب بروز) مقاومة قوات الأنصار ضد احتلال يوغوسلافيا. وقد انفصل الحزب الشيوعي اليوغوسلافي عن موسكو عام 1948. شمل مصطلح "الماكي" (Maquis) كل جماعات المقاومة في الريف الفرنسي. ومع ذلك فقد تميزت حركة "المقاتلون الفرنسيون والأنصار" (FTP) بقيادة الشيوعيين، سواء في المدن أو في الأرياف، عن الجيش السري اليميني.

ملصق دعائي لمجلة تصدر عن مجموعة مقاومة من الماكي

"من أجل الضربة الأخيرة: الكل – كل شيء!"
ملصق من حركة الأنصار اليوغوسلافيين، 1945

لذلك لم يكن في مقدور التروتسكيين تنكيس رايتهم بالدخول في كتلة الأحزاب ودعم تلك الجبهة الشعبية الكاريكاتورية. وبينما كان التروتسكيون يدعمون، ويقودون، حيثما أمكن ذلك، كل تحرك فعلي للجماهير -الإضرابات والمظاهرات والاشتباكات المسلحة- كان عليهم واجب إدانة كتلة المقاومة بالشكل الذي كانت عليه، وقيادتها باعتبارها ذراعا وعميلا للإمبريالية الأنجلو- أمريكية، ومعادية للمصالح الطبقية للطبقة العاملة.

وفي مواجهة التشكيلات العسكرية البرجوازية والبرجوازية الصغيرة لحركة المقاومة، يقع على عاتق الحزب البروليتاري واجب المعارضة، والعمل على تنظيم، حيثما أمكن ذلك، تشكيلات عسكرية مستقلة للطبقة العاملة، بالإضافة إلى تشكيلاته العسكرية المستقلة.

يُستكمل العداء العنيد لـ"كتلة المقاومة" بتكتيكات مرنة في تطبيق سياسة الحزب. كانت منظمات المقاومة مجالات مهمة للنشاط الثوري. وكان على الحزب الثوري واجب إرسال كوادره إلى حركات المقاومة، ليطرح برنامجا بروليتاريا في مواجهة البرامج البرجوازية والبرجوازية الصغيرة، ويساعد في تحطيم نفوذ البرجوازية على القطاعات المناضلة من الطبقة العاملة، وينظم معارضة بروليتارية واعية للسياسة الشوفينية والقادة الشوفينيين.

لقد طرح "تحرير" القارة على يد الإمبريالية الأنجلو-أمريكية مسألة الصراع الطبقي بشكل حاد. ومع رفع يد القمع الشمولي الثقيلة من قبل الإمبريالية الألمانية، دفعت المسألة القومية إلى الخلفية. وحده الاحتلال العسكري المطول لسنوات من قبل الإمبريالية الأنجلو-أمريكية والبيروقراطية الستالينية، هو الكفيل بإعادة المسألة القومية إلى مكانة مهمة في سياسات القارة الأوروبية. إن القمع والاستغلال غير المباشرين من قبل "القوى الثلاث الكبرى"، والتدخل العسكري من جانب الطبقة السائدة القديمة ضد البروليتاريا، من شأنه أن يثير القضية الطبقية في وعي الشعوب الأوروبية. وفي حالة ألمانيا، سوف تتخذ المسألة القومية طابعا حادا مع تفكيك ألمانيا وإخضاعها على يد الحلفاء.

الظروف الكلاسيكية للثورة البروليتارية

لقد أثبتت غالبية البرجوازيات الأوروبية، التي عانت بشدة من الحركات الجماهيرية العارمة قبل اندلاع الحرب ببضع سنوات، عجزها عن قيادة الأمم التي استدعتها "للدفاع عن الوطن". ومع تزايد إحباطها بفعل الهزيمة العسكرية، وافتقارها إلى أي منظور، وامتلائها بالكراهية تجاه طبقتها العاملة، تحالفت الطبقات السائدة بأكملها تقريبا في البلدان المحتَلة مع العدو، ونظمت استغلالا مشتركا مع المضطهِد الأجنبي، لجماهير أمتها. وهكذا بعد أن صاروا كويسلينغز، اكتسبوا كراهية الغالبية العظمى من العمال والبرجوازية الصغيرة.

ومع انتصار الحلفاء، تسعى البرجوازية الآن إلى أن تلعب مع "المحرِّرين" نفس الدور الذي لعبته مع "الغزاة". وبفعل افتقارهم إلى أجهزة قمع الدولة المستقرة، وفي ظل الهلع الذي أصابهم في مواجهة غضب الجماهير المتزايد، وانهيار معنوياتهم، وانعدام الثقة الضرورية للطبقة السائدة المستغِلة، صاروا يعتمدون كليا على حراب حلفائهم لاستمرار حكمهم.

في الجهة الأخرى من المتراس، لم تعد الطبقة العاملة ترغب في النظام القديم. فتجربة جيل كامل من الحكم الرأسمالي منذ الحرب العالمية الأخيرة، بالإضافة إلى انفضاح دور طبقتهم السائدة في ظل الاحتلال النازي؛ والبطالة والمجاعة، والفاشية، والإذلال القومي؛ والاعتراف بأنه بينما كانت الجماهير تناضل ضد المضطهِد الأجنبي، فقد تعاونت الطبقة السائدة واغتنت؛ وأخيرا، الانتصارات الهائلة للجيش الأحمر، بكل ارتباطه بثورة أكتوبر... كل هذه العوامل أدت إلى تحول في نظرة الجماهير العاملة.

يقطع عمال أوروبا علاقاتهم بالسياسة البرلمانية البرجوازية والإصلاحية الاشتراكية الديمقراطية، ويتجهون نحو السياسة الثورية والشيوعية، أي للأسف، في هذه المرحلة، نحو الأحزاب الستالينية، بصورتها الكاريكاتيرية والمشوهة.

لقد سرّعت الحرب الشاملة والهزيمة من تركيز رأس المال وتدمير الطبقة الوسطى، لا سيما في المدن. وتم دفع البرجوازية الصغيرة بوحشية إلى صفوف العمال. لقد تم إجبارهم على العمل في المصانع ومعسكرات العمل القسري؛ وتم تحويلهم إلى بروليتاريين. وعلى خلفية تجذر الطبقة العاملة، حدث تغيير مماثل داخل صفوف البرجوازية الصغيرة.

وكما هو الحال دائما، تحملت أكثر شرائح السكان اضطهادا -النساء والشباب- أكبر أعباء الحرب. هنا أيضا، وخاصة بين الشباب، ترسخت بقوة الرغبة في إحداث تغيير جذري وحل شيوعي لمشاكل العصر.

وهكذا فإن جميع الظروف الموضوعية لإسقاط الرأسمالية وبناء الاشتراكية متوفرة بوضوح. إلا أن العوامل الذاتية لم تتوفر بعد. لم تتأسس بعد الأحزاب الثورية الجماهيرية للأممية الرابعة. إن تحويل المجموعات والأحزاب التروتسكية الصغيرة إلى قيادة مكافحة للطبقة العاملة هي المسألة الأهم التي تواجه رفاقنا في أوروبا. فبدون أحزاب تروتسكية جماهيرية، سوف تتعرض الجماهير، المقيدة بالاشتراكية الديمقراطية وبالستالينية على وجه الخصوص، للهزيمة أمام أسوار الرأسمالية.

إن الضعف العددي لكوادر الأممية الرابعة وعزلة رفاقنا هما وحدهما اللذان يمنحان الطبقة السائدة فرصة لالتقاط أنفاسها. قيادة البرجوازية تدرك احتياجات طبقتها، على الرغم من تدهور معنوياتها. يجب عليها سحق الطبقة العاملة بأي ثمن؛ لكنها تفتقر في الوقت الراهن إلى القوة اللازمة للقيام بذلك.

التجربة اليونانية

لقد شكلت أحداث اليونان بداية مرحلة جديدة من الثورة والثورة المضادة في أوروبا[3]. ففي هذا البلد الصغير، حيث تراكمت القوى المتفجرة طيلة قرون من العداوات الطبقية، والذي عانى من الاضطرابات لثلاثة عقود، اندلعت حرب أهلية أعقبتها حرب تدخل وحشية قاسية من قبل الإمبرياليين البريطانيين.

أثناء الصراع بين الملكيين والجمهوريين خلال الجيل السابق، كانت البرجوازية، العاجزة عن اتخاذ إجراءات حاسمة ضد ملاك الأراضي الإقطاعيين، عاجزة بنفس القدر عن حل مشاكل الثورة الديمقراطية، ومهدت الطريق دائما للردة الرجعية الملكية.

عودة الملك جورج تلاها قيام ديكتاتورية ميتاكساس في مسعى لاستعادة "الهدوء" و"السلام" الطبقيين[4]. كان الهدف من تلك "التجربة" تفتيت الطبقة العاملة اليونانية وحركة الفلاحين اللتان هددتا بإسقاط النظام القديم والتحرك في اتجاه الثورة الاشتراكية، كما يتضح من إضرابات العمال وثورات قطاعات من الفلاحين. لقد قدم الإمبرياليون البريطانيون، الذين أجبرتهم مصالحهم المالية والاستراتيجية على اعتبار اليونان مستعمرة فرعية، المساعدة للطبقة السائدة اليونانية للقيام بتلك الخطوة الرجعية.

كانت وحشية ديكتاتورية ميتاكساس قد قوضت بالفعل أسس الطبقة السائدة اليونانية واستفزت حركة غليان شعبي قبل الحرب. لكن تعاون الطبقة السائدة اليونانية مع الغازي الألماني ولعبها دور العميل قد كثف عداء الجماهير ضدها، وبالتالي ولد الانفجار بمجرد انسحاب القوات الألمانية.

لم يكن من الممكن نجاح محاولة فرض الطبقة السائدة القديمة، وحتى النظام الملكي، على الجماهير دون صراع. كانت الجماهير، التي خاضت حربا قاسية ودموية ضد قوات الأمن الخاصة النازية (SS)، هي المسؤولة إلى حد كبير عن تحرير اليونان. كانت السيطرة الفعلية في أيديهم من خلال المنظمة المسلحة، جيش التحرير الشعبي اليوناني. وهكذا فقد كان استفزاز الشرطة اليونانية للجماهير بإطلاق النار على المتظاهرين العزل كافيا لتسريع الانتفاضة المسلحة. لقد انطلقت البروليتاريا والفلاحون اليونانيون الشجعان إلى العمل دون استعداد أو تنظيم أو فكرة واضحة عن كيفية تحقيق أهدافهم. لكن وبسبب غياب القيادة الثورية، فقد تعرض ذلك النضال للهزيمة.

قامت القيادة الستالينية بتحويل الحركة نحو مسارات آمنة على غرار "الجبهة الشعبية" المألوفة، وقيدت الأهداف الاجتماعية للحركة بقيود البرلمانية البرجوازية. وهكذا تم تمهيد الطريق للهزيمة والاستسلام من جانب القيادة الستالينية.

لقد أثبتت الأحداث اليونانية، مرة أخرى، أنه بدون حزب ثوري، ستقاد الجماهير إلى الكارثة، خاصة عندما يؤدي الصراع الطبقي إلى اندلاع حرب أهلية مفتوحة. فبدون الحزب لا يمكن للجماهير تحقيق الاستيلاء على السلطة.

ومع ذلك، وبغض النظر عن الخصوصيات المحلية، فقد مثلت اليونان في حد ذاتها نموذجا للمشاكل والدروس لأوروبا بأكملها. كانت سياسة تشرشل في القمع المستمر مدفوعة باعتبارات الاستراتيجية الإمبريالية، بقدر ما كانت مدفوعة بالعلاقات الطبقية الداخلية. ومع هيمنة البيروقراطية الستالينية على جميع أنحاء البلقان، من خلال احتلال الجيش الأحمر المنتصر، فقد كان من الضروري للمصالح الإمبريالية البريطانية في البحر الأبيض المتوسط أن تكون لبريطانيا قبضة قوية على اليونان.

إلا أنه ومع ذلك، فقد تلقى الإمبرياليون في اليونان درسا عمليا حول صعوبات سياسة القمع العسكري العلنية في أوروبا. لقد عارضت الشريحة الأكثر ذكاء وواقعية من شرائح الطبقة السائدة في بريطانيا

3. انهار الاحتلال الألماني لليونان في أوائل أكتوبر 1944، أمام حرب تحرير شاملة شنها العمال والفلاحون اليونانيون المنظمون في إطار جيش التحرير الشعبي اليوناني (ELAS)، الجناح العسكري لجبهة التحرير الوطني (EAM) بقيادة الحزب الشيوعي. لم تنزل القوات البريطانية إلا بعد إخلاء القوات الألمانية لأثينا، وذلك بهدف إعادة تأسيس النظام الملكي اليوناني ومنع بقاء السلطة في أيدي الجماهير المسلحة. اندلعت الحرب الأهلية، في دجنبر 1944، عندما بدأت القوات البريطانية بنزع سلاح جيش التحرير الوطني اليوناني. تم توقيع هدنة في فبراير 1945، إلا أن الحرب الأهلية اندلعت مجددا من عام 1946 حتى عام 1949، مخلفة 158 ألف قتيل.

4. كان الملك جورج الثاني ملكا لليونان بين عامي 1913 و1924. أُعيد إلى العرش عام 1935، وتم تعيين يوانيس ميتاكساس رئيسا للوزراء. تولى ميتاكساس سلطات ديكتاتورية بين عامي 1936 و1941.

طوال الوقت سياسة القمع الخاطئة والمغامِرة التي انتهجها تشرشل. وحتى في بلد صغير يبلغ عدد سكانه ست ملايين نسمة، فقد كشفت تطورات الأحداث عن مخاطر مثل ذلك المسار. لقد اضطرت الإمبريالية البريطانية إلى التوصل إلى تسوية مع الخونة البرجوازيين الصغار في قيادة جبهة التحرير الوطني.

شكلت حكومة بلاستيراس، وخليفتها حكومة فولغاريس، محاولة مضطربة لاستعادة توازن المجتمع البرجوازي في اليونان[5]. إن عناصر البونابرتية والديكتاتورية العسكرية موجودة في هذا النظام بدون شك. ومع ذلك فإن التسوية التي تم التوصل إليها باستسلام القيادة الستالينية، مهما كان شكلها مخففا (بسبب نضال الجماهير وتحرك البروليتاريا البريطانية)، قد تركت الجماهير ومنظماتها بعيدة عن الدمار، إن لم نقل تركتها سليمة تماما.

لا يمكن لتوازن القوى المضطرب هذا أن يدوم إلى ما لا نهاية. فإما أن يعود النظام الملكي، مما سيؤدي حتما إلى تنظيم إبادة ممنهجة لمنظمات البروليتاريا، أو أن تشعر الرجعية بضعفها الشديد وتحاول المناورة بجمهورية. لكن وحتى مع هذا الخيار الأخير، فإن النظام الحالي لن يدوم طويلا. إذ ستطيح به حتما دفعة من الأسفل، وستحاول البرجوازية من جديد التلاعب بالمشهد السياسي من خلال عملائها في الجبهة الشعبية. ومع ذلك فسوف تعتمد التطورات في اليونان إلى حد كبير على الأحداث التي تجري في أوروبا الغربية والبلقان وبريطانيا. هناك شيء واحد فقط محدد مسبقا وهو أن النظام في اليونان سيمر خلال الفترة القادمة، بأزمات متتالية.

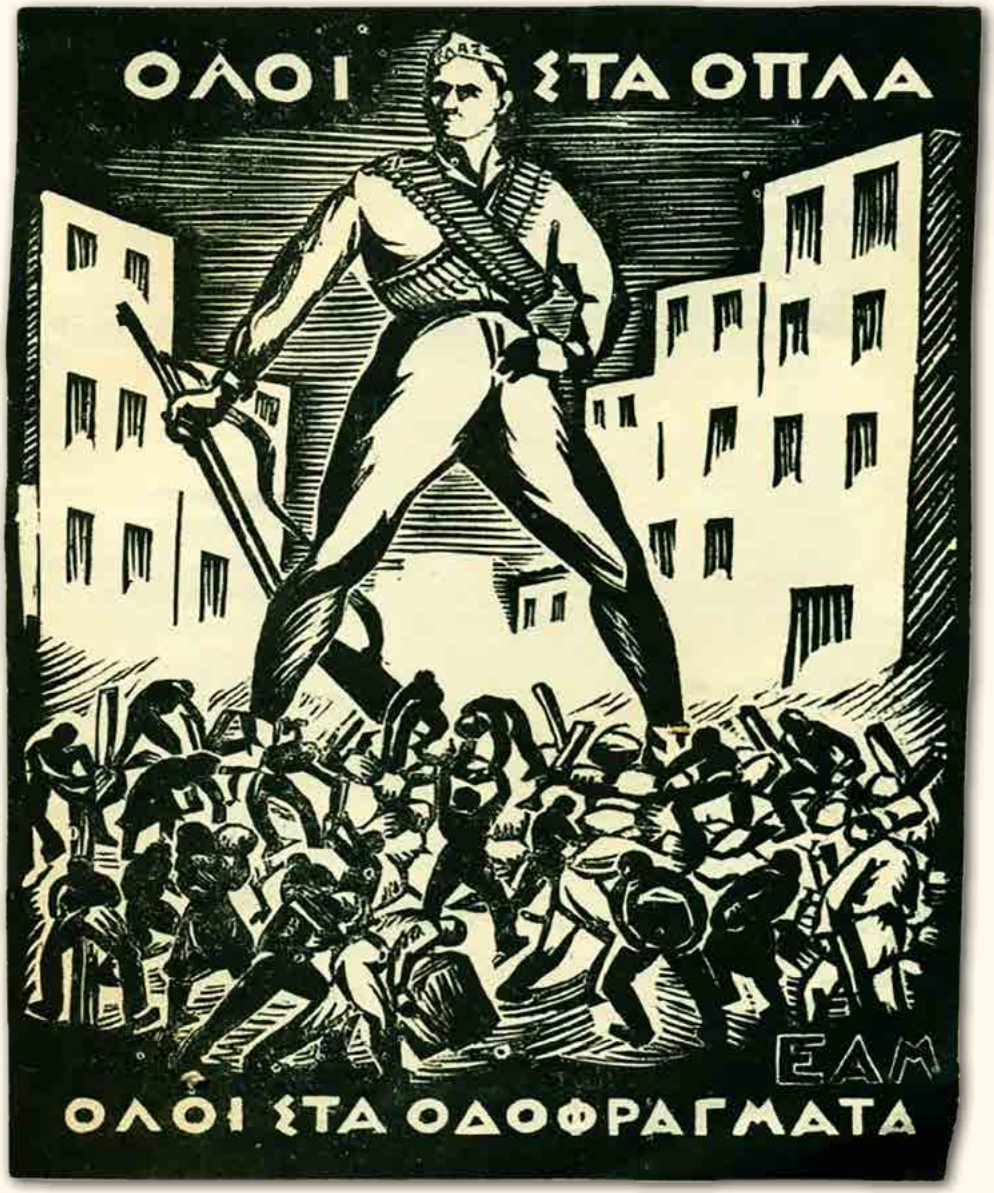

ملصق جبهة التحرير الوطني (EAM) من ديسمبر 1944

5. أصبح الجنرال نيكولاس بلاستيراس، من الاتحاد الوطني التقدمي، رئيسا لوزراء النظام العميل الموالي لبريطانيا في دجنبر 1944. وكان الأدميرال فولغاريس، قائد الأسطول اليوناني، مسؤولا عن سحق تمرد مناهض للفاشية على متن السفن في ميناء الإسكندرية في أبريل 1944. وتولى المنصب خلفا لبلاستيراس في أبريل 1945.

الثورة المضادة في صورة "ديمقراطية"

كشفت أحداث اليونان عن العاصفة الثورية المتصاعدة في أوروبا. وقد فهمت برجوازيات العالم أجمع تلك الأحداث بشكل صحيح. لقد انهارت أُسس النظام القديم في جميع أنحاء أوروبا المنهارة. واختفاء هتلر وموسوليني يعني نهاية أي أساس راسخ للرجعية في أوروبا، على الأقل في الفترة القريبة القادمة.

في ظل تنامي كفاحية الجماهير وتجذرها، ومع تحول تمردها مباشرة نحو الانتفاضة؛ ومع ابتعاد البرجوازية الصغيرة، التي تعرضت للتدمير ثلاث مرات، بكراهية واشمئزاز عن التحالفات والاحتكارات، وعن تأثير الردة الرأسمالية الرجعية؛ تتخذ مهمة الإمبريالية الأنجلو-أمريكية في إعادة "النظام" إلى أوروبا، وترسيخ سيادة رأس المال، شكل مناورات معقدة وبارعة. سيكون من الصعب في هذه المرحلة سحق الجماهير، وسيتعين خداعها بشعارات "التقدم" و"الإصلاحات" و"الديمقراطية"، في مواجهة أهوال الحكم الشمولي. لكن ومع ذلك فقد انفلتت السيطرة على الوضع في أوروبا إلى حد كبير من أيدي البرجوازية. وستكون المنظمات الجماهيرية للطبقة العاملة هي صاحبة الكلمة الحاسمة.

مع سقوط موسوليني، كان الظهور الفوري لأشكال التنظيم السوفياتي، التي نظمتها قطاعات من العمال والجنود والفلاحين، إيذانا بعودة البروليتاريا إلى الساحة السياسية. وهنا أيضا برزت فورا ازدواجية السلطة في مراحلها الأولية. لكن، ومرة أخرى، كانت سياسة الأحزاب العمالية القديمة هي العائق الرئيسي أمام تطور الثورة. ما يزال وعي الجماهير في

مراحله الأولية؛ إنهم لا يريدون الرأسمالية والنظام القديم، ويتطلعون إلى الاقتداء بعمال روسيا في ثورة أكتوبر. لكنهم لم يدركوا بعد الدور الذي تلعبه الأحزاب العمالية القديمة باعتبارها عوائق أمام تطور النضال؛ كما انهم لم يدركوا بعد الحاجة إلى حزب تروتسكي جماهيري.

تُظهر أوروبا الغربية بأكملها صورة لأزمات ثورية في مراحلها الجنينية. وقد أدى زوال القمع الشمولي إلى بروز القوى التي كانت تتطور تحت السطح. ففي بلجيكا وهولندا، وحتى البلدان الإسكندنافية، تتجلى بوضوح سيرورة المقاومة الجماهيرية للقمع، والانفصال عن مجموعات المهاجرين من "الحكومات" القديمة.

تُقدم أوروبا الشرقية صورة مماثلة لتطور السيرورة الجزيئية للثورة. إن الانتفاضة البطولية لعمال وارسو مع اقتراب الجيش الأحمر، على الرغم من تشويهها وتضليلها من قبل لجنة لندن[6]، تعبر عن مزاج الجماهير البولندية. وقد بينت الخيانة المتعمدة التي قامت بها البيروقراطية الستالينية في حق وارسو، الدور المضاد للثورة الذي لعبته البيروقراطية الستالينية في أوروبا والعالم.

من الصحيح القول إن موقف البرجوازية سيكون ميؤوسا منه في مواجهة الأحزاب الثورية الجماهيرية للطبقة العاملة في أوروبا. لكن ونظرا لضعف الطليعة الثورية، لا يكون هناك، كما أوضح لينين، موقف ميؤوس منه بالنسبة للبرجوازية. لقد أنقذت الاشتراكية الديمقراطية الرأسماليةَ بعد الحرب الأخيرة. واليوم، ثمة "أمميتان" خائنتان في خدمة رأس المال: الستالينية والاشتراكية الديمقراطية. وهما، إلى جانب قيادة المنظمات النقابية التي عادت للظهور بمجرد انحسار ضغط النازيين، يقدمان نفسيهما باعتبارهما خادمين لرأس المال.

وجدت قوات الأمن الخاصة النازية (SS) أن السيطرة على أوروبا مهمة مستحيلة. وبدورها أدركت البرجوازية، بتجربتها، استحالة السيطرة على الجماهير باستعمال وسائل مماثلة في هذه المرحلة من الصحوة. وقد وجدت في المنظمات الاشتراكية الديمقراطية والستالينية أداةً جاهزة وراغبة في التصدي للانتفاضة الثورية للجماهير وتحويلها نحو قنوات التعاون الطبقي الآمنة وغير الضارة، من خلال أشكال من الجبهات الشعبية أكثر انحطاطاً مما كان موجودا في الماضي.

وهكذا، سيجمعون بين القمع وبين الإصلاحات الوهمية، محطمين بذلك الأجهزة الجنينية لسلطة العمال ونازعين سلاح الجماهير، معلنين في الوقت نفسه رغبتهم في حكومة "تمثيلية" وحريات "ديمقراطية". لا وجود لسبيل آخر لكبح جماح انتفاضة الجماهير نحو إسقاط النظام الرأسمالي. ستتخذ الثورة المضادة الرأسمالية في مراحلها الأولى، بعد فترة وجيزة من قيام الحكم العسكري، شكلا "ديمقراطيا". وستجمع البرجوازية بين منح تنازلات وهمية وبين أعمال انتقام وقمع ضد القوى الثورية.

لا يمكن للثورة القادمة في أوروبا أن تكون سوى ثورة بروليتارية. لكن في مراحلها الأولى من المحتم أن تنجح المنظمات البروليتارية القديمة في وضع نفسها في قيادة الجماهير. لن تتعلم الجماهير إلا من خلال تجربة جديدة، مهما كانت قصيرة، أن تلك المنظمات تمثل مصالح العدو الطبقي. وفي حين أن الجماهير تعرف بشكل واضح تماما ما لا تريده، فإنها لا تعرف بشكل واضح وسائل تحقيق أهدافها. وهكذا فإن جميع العوامل تعبد الطريق لفترة من الكيرينسكية[7] في المراحل الأولى من الثورة في أوروبا.

تدرك الإمبريالية الأنجلو- أمريكية حتمية سقوط فرانكو، بعد اختفاء هتلر من المشهد، وما سيصاحب ذلك من اضطرابات ثورية في جميع أنحاء شبه الجزيرة الإيبيرية. ومع تزايد استياء الجماهير، بدأت الإمبريالية الأنجلو-أمريكية تُجري بالفعل مفاوضاتٍ ومناوراتٍ مع قطاعاتٍ من البرجوازية الإسبانية، ومع فرانكو، ومع السياسيين المهاجرين، بهدف درء الانتفاضة الثورية للجماهير.

النهوض الثوري في إسبانيا يُنذر بعواقب هامة للغاية على بقية أوروبا. ومن هنا جاء بحثهم عن بادوليو إسباني لضمان انتقال "آمن" و"سلمي" من نظام فرانكو المحتضر. وسواء نجحت جهودهم أم لا، فإن حركة الجماهير لا يمكن أن تُكبح إلا بشكل مؤقت. ومع ذلك، فقد تعلم ممثلو رأس المال المالي الجديون من تجارب العقود الماضية أكثر بكثير مما تعلمه "قادة" الطبقة العاملة الخونة. فبالنسبة لهم تُحدد مسألة الانتقال من نظام إلى آخر بما هي أفضل السبل لخدمة مصالح الطبقة السائدة وحمايتها.

من الواضح أن البرجوازية الأنجلو-أمريكية لا تستطيع فرض نير استبدادي خارجي على شعوب أوروبا لفترة طويلة من الزمن. وهنا يكتسب دور الكرملين أهمية خاصة. فبينما يخشى الكرملين بشدة انتصار الثورة البروليتارية، فإنه مهتم بالحفاظ، كلما أمكن، على أقصى قدر من حرية الحركة لعملائه، أي الأحزاب الشيوعية المحلية. يُنذر انتصار الردة الرجعية في جميع أنحاء أوروبا بخطر جديد وأكبر يتمثل في التدخل الإمبريالي ضد الاتحاد السوفياتي على نطاق قاري. وهكذا فإن سياسة البيروقراطية السوفياتية تتمثل في ضمان سيادة رأس المال، لكن مع وجود

6. في غشت 1944، ثار عمال وارسو ضد الجيش الألماني المحتل. وفي غضون يومين، سيطروا على المدينة. إلا أن الجيش الروسي، الذي كان على بعد 15 ميلا من وارسو، بعد أن كبحه الجيش الألماني، لم يقم طيلة عدة أسابيع بأية محاولة للتقدم، تاركا العمال يقاتلون وحدهم. وصف ستالين الانتفاضة بأنها "مغامرة طائشة" و"شجار طائش يقوده مغامرون". وبعد 63 يوما من المقاومة البطولية، التي أسفرت عن تدمير 93% من المدينة ومقتل 240 ألف بولندي، استعاد النازيون السيطرة. وكانت لجنة لندن هي الحكومة البولندية في المنفى منذ عام 1940.

7. نسبة إلى حكومة ألكسندر كيرينسكي التي كانت في السلطة في روسيا من يوليوز إلى أكتوبر 1917، والتي ضمت مجموعات مختلفة من الأحزاب الإصلاحية والرأسمالية.

الحركة العمالية كضمانة ضد البرجوازية.

تنظر الجماهير العريضة من شعوب أوروبا إلى الاتحاد السوفياتي باعتباره حامل لواء الاشتراكية. والأنظمة الرأسمالية مجبرة، في الوقت الحاضر، على التصالح مع هذا الوضع، ومن أجل الحفاظ على الرأسمالية في أوروبا، فهي مستعدة -بل ليس لديها خيار آخر- للتوصل إلى تسوية مع البيروقراطية السوفياتية.

إن تجربة الثورة الروسية، والثورة الألمانية عام 1918، والثورة الإسبانية عام 1931، كلها تُعزز هذه الاستنتاجات. ففي إسبانيا كانت انتفاضة الجماهير قد أدت إلى سقوط النظام الملكي وإعلان البرجوازية قيام الجمهورية. أعلنت الحكومة الائتلافية، المكونة من الجمهوريين البرجوازيين والاشتراكيين، عن برامج راديكالية على الورق، بينما مارست القمع ضد العمال والفلاحين. لم يكن من الممكن أن تدوم تلك الحكومة مدة طويلة. كان نظام الجمهورية الإسبانية نظام أزمات. فانفتحت فترة من المد والجزر، من الردة الرجعية والتجذر، بلغت ذروتها بعد نصف عقد من الزمن عندما حاولت البرجوازية والبروليتاريا إيجاد حل في حرب أهلية دموية يائسة.

تجد البرجوازية في المنظمات الاشتراكية الديمقراطية والستالينية أداةً جاهزة وراغبة في التصدي للانتفاضة الثورية للجماهير وتحويلها نحو قنوات التعاون الطبقي الآمنة وغير الضارة.

سيتكرر نمط الأحداث الإسباني على نطاق أوروبي شامل في الفترة المقبلة. تواجه كل من البلدان المتخلفة والمتقدمة، بدرجة أو بأخرى، نفس الأزمة. فمن نهر الفولغا إلى بحر الشمال، ومن البحر الأسود إلى بحر البلطيق، تحولت أوروبا بأكملها تقريبا إلى خراب وفوضى. وبالتالي فقد صار من المستبعد قيام أساس مستقر للديمقراطية البرجوازية. حتى "الاستقرار" النسبي للجمهورية الإسبانية لن يتحقق. وتبشر الأحداث التي تشهدها إيطاليا واليونان بأكبر فترة ثورية في تاريخ أوروبا.

برنامج الحلفاء لأوروبا

نظرا لعمق الأزمة الرأسمالية، يُعد برنامج الحلفاء لأوروبا أشد فظاعة في أحكامه من معاهدة فرساي نفسها. فبدلا من الوحدة القسرية لمعسكر اعتقال ضخم واحد، كما كان هدف النازيين، يسعى الحلفاء إلى تفتيت أوروبا وتقسيمها على نفس النهج الذي أدى بوضوح إلى كارثة ما بعد الحرب العالمية الأولى. ستصبح أوروبا فريسة للإمبرياليتين البريطانية والأمريكية، مع تحول أجزاء منها إلى كيانات تابعة للبيروقراطية السوفياتية وضمن نفوذها.

إذ أنه حتى في ظل الرأسمالية، ستمثل أوروبا الموحدة منافسا وتهديدا

"تحالف لا يُكسر – مرحبًا"، ملصق جبهة التحرير الوطني (EAM) من 1944

هائلا للإمبرياليتين البريطانية والأمريكية. والبيروقراطية السوفياتية بدورها تعارض بشدة فكرة توحيد ولو جزء من القارة في فدراليات رأسمالية، لأن ذلك سيشكل حتما أساسا لحرب جديدة ضد الاتحاد السوفياتي في المستقبل. ولذلك فإن ستالين، إلى جانب ترومان[8] وتشرشل، مصمم على بلقنة أوروبا وتقطيع أوصال ألمانيا، باعتبارها العدو اللدود الوحيد المحتمل في أي حرب مستقبلية على قارة أوروبا.

الإمبريالية الأمريكية، بمواردها الهائلة وقدرتها الإنتاجية الضخمة، تسعى جاهدة إلى "تنظيم" العالم بأسره، لأجل التهرب من عواقب التناقضات المستعصية بين قدرات وحدود حتى السوق الأمريكية العظمى. تسعى أمريكا إلى القضاء على الهيمنة الأوروبية العريقة -وعلى رأسها الإمبريالية البريطانية المتهالكة- والاستيلاء على أسواق العالم أجمع. ولأن أمريكا غير مكتفية بأسواق البلدان المستعمَرة، فإنها تسعى إلى إحكام قبضتها على أسواق وصناعات أوروبا أيضا. إنها تريد أن يسيطر الدولار على عملات واقتصاد أوروبا.

وباستغلال الفوضى والاضطراب في أوروبا الناجمين عن الحرب، يأمل رأس المال المالي الأمريكي في إطعام أوروبا بالحصص الغذائية من خلال القروض وسلاح الغذاء والإمدادات والمعدات، والعمل في الوقت نفسه، في لحظات التوتر والاضطرابات، على ابتزاز الثورات والقضاء عليها بالوسائل نفسها.

إن وحشية الإمبريالية الأنجلو- أمريكية تجاه ألمانيا لا تمليها فقط الرغبة في الاستعباد والاستغلال، بل أيضا يمليها الخوف من الثورة البروليتارية في ألمانيا. لقد مر الشعب الألماني، خلال بضعة عقود، بتجربة جميع أنظمة الحكم البرجوازي. وستتجه البروليتاريا والبرجوازية الصغيرة حتما نحو الثورة الاشتراكية.

ألمانيا هي المكان حيث ستكتشف البرجوازية الطابع الطوباوي لمخططاتها الهادفة للحفاظ على النظام القديم. وجميع المحاولات التي تسعى لمنع التآخي ستنهار مع احتلال ألمانيا ولو لفترة من الزمن. سوف يعتبر الدوبويز[9] أن مهمتهم في أوروبا قد اكتملت. وسيطالبون بالتسريح والعودة إلى الوطن، إلى العالم الأفضل الذي وعدتهم به البرجوازية. إن نضال البروليتاريا الألمانية ضد قوات الاحتلال، وضد الإذلال الوطني وتقطيع أوصال ألمانيا، والنضال من أجل الحرية القومية والاجتماعية، سيمهد الطريق، تحت وطأة قوات الاحتلال نفسها، لاندلاع مقاومة عارمة من جانب الجماهير.

لا يمكن للستالينيين، ببرنامجهم الرجعي القائم على الاستعباد القومي، أن يأملوا في خداع الجماهير الألمانية إلا لفترة وجيزة. ويتم تمهيد الطريق لإعادة تجميع سريعة لقوى البروليتاريا الألمانية في اتجاه ثوري. إن تجربة إيطاليا مثال حي على سرعة تعافي الجماهير من آثار الهزائم الفادحة تحت وطأة الأحداث التاريخية. تبدو موارد البروليتاريا وقدرتها على النضال غير محدودة تقريبا.

إن بلقنة ألمانيا وأوروبا، والهيمنة الأنجلو- أمريكية على أوروبا الغربية، ومطالب فرنسا، وهيمنة الكرملين على أوروبا الشرقية عبر عملاء برجوازيين، ستكون لها عواقب على القارة المعذبة أشد وطأة من "سلام" فرساي. في عصر الطائرات وفرق الدبابات، تتخذ عبثية الحدود الوطنية والحواجز الجمركية والجيوش، للبلدان الصغيرة والكبيرة في أوروبا، طابعا كارثيا، نظرا للخنق البطيء والمؤلم لقوى الإنتاج، وانحدار الثقافة الأوروبية. وخاصة أن القوى العظمى -التي، لأول مرة، لا تضم أيا من القوى الأوروبية- ستستنزف أوروبا بأكملها لتحقيق مآربها الخاصة. ستصبح المرحلة القادمة المرحلة الكلاسيكية للحروب والثورات والثورات المضادة، التي تعمقت وتفاقمت بفعل العقود الماضية.

وبناء على الدعم الذي قدمته الستالينية والإصلاحية الكلاسيكية (وهذا أحد العوامل الموضوعية التي يجب أخذها في الاعتبار)، فقد صار في إمكان الإمبريالية العالمية أن تنجح، لفترة من الوقت، في تحقيق "استقرار" الأنظمة الديمقراطية البرجوازية في بعض البلدان.

سيتوجب على الستالينية أن تقدم للجماهير بعض المكاسب في صورة استعادة النقابات العمالية، وحرية الصحافة (نسبيا، كما في إسبانيا عام 1931) وحرية التعبير، والتصويت، وما إلى ذلك، مهما كان شكلها مخففا. يحتاج الإمبرياليون إلى فترة "ديمقراطية" مؤقتة قبل سلوك طريق الرجعية. وعلاوة على ذلك فإنه ليس لديهم خيار آخر. فصدمات الحرب وانهيار الفاشية لم تتركا قاعدة جماهيرية للردة الرجعية خلال الفترة المقبلة مباشرة. ستكون محاولة إقامة ديكتاتوريات عسكرية دون دعم اجتماعي أمرا بالغ الصعوبة. وعلاوة على ذلك فإن تلك الأنظمة لن تصمد طويلا بعد اضطرار القوات البريطانية والأمريكية على الانسحاب. لذا فسيجبرها الاندفاع العنيف للجماهير إلى استخدام سلاحها الاحتياطي المتمثل في قيادة المنظمات العمالية.

لكنه من الممكن، من ناحية أخرى، للإمبرياليين الأنجلو-أمريكيين والبرجوازيات الوطنية، أن ينجحوا في حالات معزولة في إقامة ديكتاتوريات عسكرية فورا. لكن تلك الديكتاتوريات لن تصمد طويلا بدون قاعدة اجتماعية بين الجماهير. وعلى خلفية الاضطرابات والصراعات الاجتماعية الأوروبية والعالمية، ستواجه تلك الأنظمة الكثير من الأزمات والتشنجات.

إن تقديرنا لتطور الأحداث لا يعني أننا نستخلص استنتاجات متشائمة. بل

8. هاري ترومان، رئيس الولايات المتحدة الأمريكية (1945-1953)، من الحزب الديمقراطي. وضع مبدأ ترومان الذي منح "مساعدات" للبلدان المهددة بالتدخل الاقتصادي والعسكري. كما طبق خطة مارشال للمساعدات الاقتصادية من أجل منع الثورة في أوروبا عام 1948.

9. الدوبويز: Doughboys لقب عامي يطلق على الجنود في بريطانيا والولايات المتحدة

على العكس. لكنه يتطلب من الأممية الرابعة استغلال الوضع من أجل الاستعداد للصدمات التي تنتظر الإمبرياليين. إن عصرنا هو عصر المنعطفات الحادة. لقد تطورت التغيرات في الوضع في إسبانيا بعد ثورة 1931 بسرعة هائلة[10]: انتفاضة الجماهير، وخيانة الإصلاحيين، وعجز النقابيين اللاسلطويين والستالينيين عن توفير قيادة ثورية (خاصة فيما يتعلق بالمطالب الديمقراطية والانتقالية). وفترة الهدوء القصيرة التي أعدت فيها الرجعية قواتها لتصفية الحساب مع الجماهير مستغلة خيبة الأمل واليأس بسبب قيادة الحركة؛ رد الجماهير على سوط الثورة المضادة بالإضراب العام والانتفاضة في أستورياس وكاتالونيا؛ عجز الرجعية عن تعزيز موقفها؛ انتعاش الحركة الجماهيرية، تشكيل الجبهة الشعبية لتلعب دور الكابح للحركة الجماهيرية؛ تنظيم انتخابات فبراير؛ واندلاع حركات العمال والفلاحين العاصفة التي عجز الستالينيون والإصلاحيون عن السيطرة عليها؛ ظهور حركة تتجه نحو الثورة الاشتراكية؛ وانقلاب فرانكو في يوليوز وما تبعه من انتفاضات جماهيرية.

نرى هنا لمحة عن المرحلة المقبلة في أوروبا. يجب على كوادر الأممية الرابعة أن يدرسوا بعناية فائقة دروس تلك الأحداث. فكل مرحلة تتوافق معها شعارات وتكتيكات مختلفة، وأساليب تحريض ودعاية مختلفة، وتحركات جماهيرية مختلفة.

على خلفية هذه الأزمات التي تمتد إلى حد ما عبر جميع أنحاء القارة، وتتجاوز الحدود الوطنية القديمة، تتهيأ الظروف الموضوعية لإقامة الولايات المتحدة الاشتراكية الأوروبية باعتبارها الحل الوحيد للمشاكل التي تثقل كاهل جميع البلدان.

إن تداعيات الحرب، ونضال الشعوب ضد الهيمنة النازية، ونموذج الاتحاد السوفياتي، وردة الفعل القادمة ضد هيمنة الحلفاء، وردة الفعل الحتمية ضد السموم القومية والشوفينية، وتجذر الجماهير الأوروبية.. كل هذه العوامل توفر بدورها الأساس الذاتي للدعاية للولايات المتحدة الاشتراكية الأوروبية التي ستستجيب لها الجماهير. إن الشعار الاستراتيجي الرئيسي الذي هو الولايات الاشتراكية الأوروبية المتحدة، وباعتباره الخيط الذي ينظم برنامج الأممية الرابعة، سيكون البديل الوحيد عن الانحلال والتفكك الوطني، وانحدار الثقافة والحضارة في جميع بلدان أوروبا.

مهامنا في أوروبا

لن تتمكن الأممية الرابعة من التغلغل في صفوف الجماهير العريضة وبناء حزب الثورة الاشتراكية إلا من خلال مقاربة تكتيكية صحيحة تجاه الأوضاع والأمزجة المتغيرة.

10. هاري ترومان، رئيس الولايات المتحدة الأمريكية (1945-1953)، من الحزب الديمقراطي. وضع مبدأ ترومان الذي منح "مساعدات" للبلدان المهددة بالتدخل الاقتصادي والعسكري. كما طبق خطة مارشال للمساعدات الاقتصادية من أجل منع الثورة في أوروبا عام 1948.

سيتطلب الأمر سلسلة كاملة من الهزائم المروعة قبل أن تتمكن البرجوازية من إقامة حكم ديكتاتوري صريح على غرار نظامي هتلر وموسوليني الفاشيين. تبدأ الدورة من جديد، ولكن على أسس جديدة. إن تدهور النظام الرأسمالي يُضعف البرجوازية ويجعلها أقل قدرة على فرض سيطرتها على الجماهير بحزم. يواجه العالم الآن فترة مشابهة لفترة ما بين عامي 1917 و1921، ولكن على مستوى أعلى.

إن انحطاط المنظمات العمالية المتعفنة يمنح الرأسمالية متنفسا. لكنه لا يمكن للبرجوازية أن تأمل في إنقاذ نظامها مرة أخرى باللجوء إلى فاشية جديدة والقمع الوحشي إلا إذا فشلت سلسلة الثورات. قبل ذلك ستكون الجماهير قد وُضعت على المحك. وسوف تتخلى البروليتاريا عن منظماتها القديمة إذا تمكنت الأممية الرابعة الاندماج، باستراتيجيتها وتكتيكاتها، في الحركة الجماهيرية للعمال.

إن المهمة الأساسية في هذه الفترة هي بناء الأحزاب الثورية الجماهيرية للأممية الرابعة. وبينما يكافح رفاقنا الأوروبيون وينادون بإنشاء منظمات ثورية كلما سنحت الفرصة، ويناضلون من أجل ديكتاتورية البروليتاريا ويدافعون عنها باعتبارها الحل الوحيد، فإنه لا يسعهم أن يأملوا في تحقيق ذلك في المراحل الأولى من النضال.

صحيح أن الجماهير تسعى إلى الحل الاشتراكي؛ لكنه سيتعين عليها المرور عمليا بتجربة السياسة الخيانية الستالينية والاشتراكية الديمقراطية لكي تتعلم أنه حتى مستويات المعيشة القديمة لا يمكن تحقيقها إلا بوصول الطبقة العاملة إلى السلطة.

إن النضال من أجل المطالب الديمقراطية والاقتصادية والانتقالية، لن يُستبدل أو يصبح متجاوزا خلال مسار الحقبة الثورية المقبلة، بل سيكتسب أهمية بالغة في بناء حركتنا. وهكذا فجنبا إلى جنب مع الدعاية للسوفييتات وحكومة العمال، يجب في هذه المرحلة التحريض من أجل أن تقوم المنظمات العمالية القديمة، التي ما تزال تحظى بثقة الجماهير ودعمها، على فسخ تحالفها مع البرجوازية المنحطة والحلفاء الإمبرياليين، ويعمل القادة على مواءمة أقوالهم مع أفعالهم.

على رفاقنا أن يطالبوا المنظمات الجماهيرية، التي تدعي تمثيل العمال، بخوض النضالٍ من أجل حسم السلطة بين أيديها. سيكون شعار "حكومة اشتراكيين وشيوعيين!" هو شعار التعبئة الذي ستستخدمه الأممية الرابعة لتعبئة العمال الاشتراكيين الديمقراطيين والشيوعيين لخوض النضالٍ ضد الطبقة الرأسمالية.

ويجب أن يترافق ذلك الشعار مع مطلب إجراء انتخابات عامة على أساس الاقتراع العام لكل من يبلغون سن الثامنة عشرة. تثرثر البرجوازية والمنظمات الإصلاحية عن الحقوق الديمقراطية، لكنها سمحت للسلطة بالبقاء في أيدي زمر برجوازية، معظمها تحت حماية حراب الحلفاء، دون استشارة الجماهير أو الحصول على تفويض منها. لذلك يجب أن يكون لمطلب إجراء انتخابات عامة وعقد جمعية تأسيسية دور كبير في التحريض الذي يقوم به رفاقنا في المراحل الأولى من التعبئة الثورية للجماهير.

وسترتبط بذلك شعارات انتقالية في مختلف القطاعات في مراحل مختلفة من النضال: تأميم البنوك دون تعويض! الاستيلاء على المناجم والسكك الحديدية والمركبات الصناعية الكبرى، وتشغيلها تحت الرقابة العمالية! مصادرة الاحتكارات التي تعاونت بالأمس مع هتلر، وتتعاون اليوم مع الحلفاء الإمبرياليين! من أجل برنامج أشغال عامة! من أجل سلم متحرك لساعات العمل والأجور! تسليح العمال وتنظيم ميليشيات عمالية!

لا داعي للتفصيل في جميع المطالب التي ستطرح وفقا لتطور الوضع كما هو منصوص عليه في سياسة الأممية الرابعة في برنامجها الانتقالي. هذه المطالب لا تتعارض مع برنامج السوفييتات، أو لجان العمال في المصانع والشوارع. لكن بدونها ثمة خطر تدهور مجموعات الأممية الرابعة إلى حالة من العقم العصبوي والعزلة. إنها تمثل جسرا نحو الجماهير العريضة، وبدونها تصبح مشكلة تنظيم الطليعة أكثر صعوبة.

هذه هي الفترات حيث ستبني أحزاب الأممية الرابعة نفسها. لن تحقق الأحزاب الستالينية والاشتراكية الديمقراطية الاستقرار الذي حققته في حقبة ما قبل الحرب، بل ستواجه سلسلة متواصلة من الأزمات والانقسامات. وإذا ما اتبعت أحزاب الأممية الرابعة تكتيكات صحيحة، فإنها ستنمو على حسابهم. لكنه لا بد أن تظهر تيارات وتجمعات وسطية عابرة في العديد من البلدان نظرا لضعف منظمات الأممية الرابعة وافتقارها إلى متحدثين موثوقين، مثل ليون تروتسكي. ستبني الأممية الرابعة نفوذها على أساس قدرة الكوادر الشابة للأممية على التعلم بأنفسهم في سياق النضالات، وعلى أساس تجربة الجماهير في تطبيق برنامج الأممية الرابعة.

نقطة تحول تاريخية تم تصويرها على الشاشة:
أصول الواقعية الجديدة الإيطالية وتأثيرها

مثّلت الحرب العالمية الثانية نقطة تحوُّل جوهريّة في التاريخ، حيث امتدت تأثيراتها إلى جميع مستويات المجتمع، بما في ذلك الفن. في هذا المقال، يتطرق دانيال مورلي إلى دور الحرب في نشأة السينما الواقعية الجديدة الإيطالية، والتأثير الذي أحدثته على الأفلام الأخرى في تلك الفترة.

ظهرت حركة السينما الواقعية الجديدة الإيطالية فجأة مع سقوط موسوليني في إيطاليا عام 1943. وقد عبرت تلك الحركة بكل معنى الكلمة عن قطيعة عميقة مع الماضي، وعن الإمكانيات الثورية لتلك الفترة، ليس فقط في أسلوب أفلامها ومواضيعها، بل أيضا في ظروف ظهورها باعتبارها حركة.

لقد انبثقت بين عشية وضحاها تقريبا من نقيضها، أي من أفلام نظام موسوليني الفاشي، التي كانت جميعها حيلا براقة وهروبا من الواقع، وهو ما كان النظام يفرضه عليها.

إن التدمير الكامل لاستوديوهات الأفلام التي كان نظام موسوليني يسيطر عليها، والتي قصفت خلال الحرب، لم يكن يعني فقط تحرر صانعي الأفلام الإيطاليين فجأة من الرقابة الشمولية، بل وكذلك اختفاء الاستوديوهات المرتبطة بها. ولذلك كانت لديهم كل الأسباب لاحتضان روح "الربيع الإيطالي"، وإطلاق العنان لكل الإبداع المكبوت الذي قمعته الفاشية، من خلال استوديوهات جديدة وأساليب وأفكار جديدة.

ولهذا السبب، لم يكن ذلك الأسلوب السينمائي يعكس فقط ضغوطا ومُثلا سياسية مختلفة فحسب، بل كان مختلفا من جميع النواحي. كانت أحداث تلك الأفلام تدور بين الطبقة العاملة، وتم تصويرها بالضرورة في الأحياء العمالية،

يسار ويمين: لقطات من فيلم "روما، مدينة مفتوحة".

واستعانت بممثلين غير محترفين من بين الفئات الكادحة التي كانت تمثلها. وهذا ما يجعل منها ليس أفلاما عظيمة فحسب، بل أفلاما وثائقية تقريبا توثق لحظة تاريخية فريدة.

روما، مدينة مفتوحة

في شتنبر 1945، تم عرض فيلم "روما، مدينة مفتوحة" (Rome, Open City)، بعد 15 شهرا فقط من تحرير روما من النازيين، وبعد أربعة أشهر فقط من انتهاء الحرب في أوروبا. هذا الفيلم الرائع، الذي تدور أحداثه في روما المحتلة من قبل النازيين، وصفه مارتن سكورسيزي بأنه: "أثمن لحظة في تاريخ السينما"[1].

كان من بين من كتبوا قصته العظيم فيديريكو فيليني، وأخرجه روبرتو روسيليني باعتباره جزء من ثلاثيته الواقعية الجديدة الشهيرة. يصور الفيلم بواقعية لافتة مقاومة مجتمع محلي من الإيطاليين العاديين للنازيين. ولتحقيق ذلك، استعان روسيليني بشكل كبير برومانيين من الطبقة العاملة حقا بدلا من ممثلين محترفين لأداء الأدوار.

تم تصوير الفيلم في يناير 1945، بينما كانت الحرب ما تزال مستعرة في ألمانيا وشمال إيطاليا، وبعد سبعة أشهر فقط من هزيمة النازيين في روما. وأثناء التصوير، أخرج أحد السكان المحليين مسدسه، معتقدا أن الأحداث التي تُمثل حقيقية!

لم يكن روسيليني نفسه منحازا سياسيا للطبقة العاملة، بل كان في الواقع قد صنع أفلاما لدكتاتورية موسوليني الفاشية. لكنه كان مخلصا لمهنته في الواقعية، التي وصفها بأنها "ليست سوى الشكل الفني للحقيقة"[2]. ولهذا السبب فإن فيلم "روما، مدينة مفتوحة" يجسد بصدقٍ حدة نضال هذا المجتمع ضد الاحتلال النازي، وتضامنه وشجاعته وصبره في مواجهة تلك الظروف الشاقة.

وكما يقول فرانشيسكو (الشخصية الرئيسية في الفيلم):

«ستنتهي [الحرب] يا بينا، وسيعود الربيع، أجمل من أي وقت مضى، لأننا سنكون أحرارا. علينا أن نؤمن بذلك ونرغب فيه. يجب ألا نخاف الآن أو في المستقبل، لأننا على الطريق الصحيح. هل فهمتِ يا بينا؟

[...]

نحن نناضل من أجل شيءٍ لا بد منه، شيء قادم لا محالة. قد يكون الطريق طويلا وشاقا، لكننا سنصل إلى هناك وسنرى عالما أفضل. وسيراه أطفالنا على الخصوص».

بدأ فيلم "روما، مدينة مفتوحة" باعتباره فيلما وثائقيا، وما يزال أحيانا يشعرك بأنه كذلك. وبفضل واقعيته وتصويره في موقع الحدث بعد انتهاء الحرب بوقت قصير، يُمثل كنزا تاريخيا لا يقدر بثمن، ونافذة على لحظة تاريخية وجيزة كانت فيها أوروبا على أعتاب الثورة.

يلمّح هذا الفيلم بذكاء إلى الإمكانيات المهدورة لذلك الوضع الثوري، عندما يتم

القبض أخيرا على الشيوعي الذي كان النازيون يبحثون عنه. والضابط، الذي فشلت أساليب التعذيب التي مارسها عليه في كسره، ينتقل إلى أسلوب يعتمد أكثر على ما هو سيكولوجي وسياسي، فيقول له:

«أنت شيوعي. حزبك عقد حلفا مع القوى الرجعية. أنتم جميعا تعملون ضدنا الآن. لكن غدا، عندما تُحتل روما، أو "تُحرر"، كما تقول، هل سيبقى هؤلاء الضباط المَلكيون حلفاءك؟ إني أقدم لك الحل لهذه المشكلة: أعطني أسماء جنرالات بادوليو».

يتمسك الثوري بموقفه ويرفض خيانة "حلفاء" حزبه الليبراليين والمَلكيين. ويدفع حياته ثمنا لذلك. وسواء كان روسيليني يقصد ذلك أم لا، فإن هذا يرمز ببراعة إلى مأساة التضحية بالثورة على يد قادتها "الشيوعيين" من أجل إرضاء حلفاء ستالين الإمبرياليين.

في مرحلة مبكرة من الفيلم، يطرح أحد السكان السؤال التالي: "هل تعتقد أن هؤلاء الأمريكيين موجودون حقا؟". يُوحي السؤال باليأس من انتهاء الحرب، لكنه يوحي أيضا بالشك في هؤلاء الأمريكيين، الذين لديهم بالتأكيد مصالحهم الخاصة. ويبدو أن هذا المنظور يؤكده رد أحد السكان، الذي ينظر إلى مبنى مُدمر ويقول: "يبدو الأمر كذلك".

اشتد قصف الحلفاء للمدن الإيطالية في الجزء الثاني من الحرب، ملحقا دمارا شديدا بالمصانع والبنية التحتية، وأوقع خسائر فادحة في صفوف المدنيين، ودمر أحياء عماليةً بأكملها.

كان ذلك هو التحرير الذي حققته روما بفضل ستالين وتولياتي، زعيم الحزب الشيوعي الإيطالي، اللذَيْن كبحا تحركات الأنصار الشيوعيين الذين كان بإمكانهم تحرير روما بأنفسهم.

الصراع من أجل البقاء

إن قسوة حياة المجتمع الذي نركز عليه تتجلى بوضوح تام. فعند مشاهدة الفيلم، تشعر وكأنك أحد سكان ذلك المبنى السكني الضيق، تسمع محادثاتهم

ملصق فيلم: "روما، مدينة مفتوحة".

يسار ويمين: لقطات من فيلم "ألمانيا: السنة صفر".

وتشارك في جهود المجتمع لضرب النازيين. تشعر بالفوضى المنظمة للحياة الواقعية، حيث يعيش الناس فوق بعضهم البعض، ويعتَنون ببعضهم البعض، ولكنهم أيضا يزعجون بعضهم البعض.

تشكو إحدى الشخصيات من صعوبات الحياة في زمن الحرب والاحتلال النازي، وتقول مع تنهيدة: "الإنفلونزا هي كل ما يوجد بكثرة هذه الأيام". ويقول آخر، ليس بفخر بل بخجل: "لقد اقتحمنا مخبزا هذا الصباح، وهو الثاني هذا الأسبوع".

غالبا ما توصف أفلام روسيليني بأنها غير عاطفية وباردة، وذلك بفعل واقعيتها. إن إطلاق النار على الشخصيات المهمة يُظهر بالتأكيد وبطريقة عملية أن هذه هي حقيقة الحياة. الحرب صراع مكشوف من أجل البقاء؛ ليست دافئة وعاطفية، لذا فإنه من الصواب أن تكون أفلامه كذلك. لكن هذا لا يعني أن الناس العاديين الذين يعانون من الحرب هم أنفسهم باردون وغير مبالين، والفيلم ينقل هذا الواقع أيضا.

كان من الممكن تصوير فيلم "روما، مدينة مفتوحة" دون أية زخارف عاطفية. إلا أنه فيلم دافئ لأنه يتناول أناسا حقيقيين ونضالاتهم الحقيقية، المليئة بالبطولة والتضامن والتضحية بالنفس.

مع ذلك فإنه لا يتم تصوير هؤلاء الرومانيين على أنهم ثوريون خارقون. فبعد القبض على اثنين منهم، كانا ينتظران تعذيبهما المحتوم بخوف شديد، ويحاولان تشجيع بعضهما للبقاء صامتين، وهما غير متأكدين من قدرتهما على ذلك.

وبعد إحضار شعلة اللهب، نرى غباء الضابط النازي قصير النظر، الذي يعتقد أن كل ما عليه فعله هو تطبيق أساليب وحشية للحصول على الإجابات التي يريدونها. لكن ضابطا آخر تمكن من استشراف المستقبل بلحظة، وأثار شكوكا حول فعالية تلك الأساليب العنيفة، وقال:

«لقد ملأنا أوروبا بالجثث. ومن قبورهم، تنبعث كراهية لا تخمد. كراهية، كراهية في كل مكان!».

ألمانيا: السنة صفر

عواقب الاحتلال النازي لأوروبا ونهبها، وتلك الكراهية التي لا تَخمد الموجهة ضد الألمان، صارت لاحقا موضوع تحفة فنية واقعية جديدة لروسيليني بعنوان "ألمانيا: السنة صفر" (Germany: Year Zero). تم تصوير ذلك الفيلم جزئيا في شوارع في برلين وجزئيا في روما عام 1947، ولعل ما يجعله أكثر تميزا هو كونه سجلا للحرمان الشديد واليأس الذي واجهه الألمان العاديون في أعقاب الحرب مباشرة.

تلخصت سياسة الحلفاء المنتصرين في نهاية الحرب في «نزع السلاح الكامل، ووقف العسكرة، وتقطيع أوصال ألمانيا بما يرونه ضروريا للسلام والأمن في المستقبل»[3]. وعلاوة على ذلك، كان على ألمانيا أن تدفع ثمن جميع الخسائر التي حدثت خلال الحرب.

وباسم "نزع السلاح" و"التعويضات"، تم تفكيك الصناعة والبنية التحتية الألمانية بالكامل ونقلها إلى القوى المنتصرة، بينما

تم فرض غرامة باهظة على ما تبقى من الناتج القومي الألماني. وفي الوقت نفسه، تم تجنيد ملايين العمال الألمان من قبل الحلفاء للعمل القسري.

تم اختلاق أسطورة "الذنب الجماعي" للشعب الألماني لتبرير برنامج النهب المكشوف هذا. وأطلقت قوات الاحتلال التابعة للحلفاء حملة دعائية ضخمة في جميع أنحاء ألمانيا، تضمنت ملصقات تعرض صورا لمعسكرات الاعتقال تحمل شعار "هذه الفظائع: إنها خطأكم!".

ومع كسر القبضة الحديدية للفاشية، انطلقت مبادرات عفوية من جانب الطبقة العاملة الألمانية. لكن قوات الاحتلال التابعة للحلفاء قمعت تلك المبادرات على الفور، بدعم من القادة الاشتراكيين الديمقراطيين والستالينيين.

في تلك الأثناء، في المناطق المحتلة من الغرب، لم يكتفِ كبار الرأسماليين الذين تعاونوا مع النظام النازي بالبقاء أحرارا فحسب، بل احتفظوا بممتلكاتهم أيضا، بينما ملأ مسؤولون نازيون سابقون ما سيصبح لاحقا دولة ألمانيا الغربية. وبحلول سنة 1957، كان 77% من كبار المسؤولين في وزارة العدل في ألمانيا الغربية نازيين سابقين؛ وهي نسبة أعلى مما كانت عليه في عهد الرايخ الثالث نفسه!

لذلك، لم يكن "العار الوطني" لألمانيا سوى نقلٍ لذنب الطبقة السائدة إلى أكتاف ملايين الرجال والنساء والأطفال من الطبقة العاملة، الذين كانوا سنة 1947 يعانون من الجوع والتشرد وانعدام الأمن.

فيلم "ألمانيا، السنة صفر" يعكس بوضوح معاناة شعب مهزوم ومهان، من خلال القصة المأساوية لنضال عائلة من برلين من أجل البقاء وسط أنقاض مدينتهم. ولأن الفيلم تم تصويره في الميدان بعد أقل من ثلاث سنوات من استيلاء الجيش الأحمر على برلين، فإن مظاهر الإبادة في الفيلم حقيقية تماما. كانت برلين مليئة بتلال من الأنقاض، وكانت كل مبانيها مجرد حطام.

يبدأ الفيلم بنقاش بين مجموعة من العمال حول أي قسم من المدينة، الأمريكي، البريطاني، الفرنسي، أم السوفياتي، لديه أكبر كمية من الطعام. وحول شائعات بوجود مربى في القسم السوفياتي. ماذا يفعل هؤلاء العمال وهم يتناقشون؟ إنهم يحفرون القبور؛ ولا يسعنا إلا أن نفترض أنها ستملأ بجبال من الجثث التي خلفتها الحرب.

الشخصية الرئيسية، إدموند، هو فتى في الثانية عشرة من عمره تقريبا، يُطرد من مهمة حفر القبور لصغر سنه وضعف بنيته. لم يُجسد دوره ممثل محترف، بل ممثل برليني يدعى روسيليني عُثر عليه في سيرك.

أوقات عصيبة

عائلة إدموند في حالة يأس. ويدور بينهم نقاش محتدم حول كيفية الحصول على المزيد من الطعام.

الابن الأكبر في حالة اضطراب بسبب ماضيه، ولهذا السبب لم يتقدم بطلب للحصول على بطاقة تموينه، لأن ذلك سيضطره لتسجيل اسمه. أخته، التي تصر على أن يقوم بطلب بطاقته من أجل العائلة، تقول له: "كانت تلك حربا، وكنتَ تؤدي واجبك باعتبارك جنديا". لكنه يخشى أن تستهدفه حملة اجتثاث النازية، لأن وحدته قاتلت حتى الرمق الأخير. وبالتالي فقد أصبح مجرد فم آخر يجب إطعامُه، وعبئا على العائلة.

مأزق تلك الشخصية تُجسد أجواء هذا الفيلم المختلف تماما عن فيلم "روما، مدينة مفتوحة". ففي إيطاليا، على الرغم من فقر البلد في نهاية الحرب، كان الناس قد خاضوا كفاحا منتصرا ضد الفاشية. أما بالنسبة لشقيق إدموند في ألمانيا، فإن نهاية الحرب لم تُشعره بالتحرر؛ فهو لا يستطيع عيش فترة السلام الجديدة. إنه عالق في ظلال الحرب، لأنه كان مشاركا في جرائم الطرف المهزوم. وهذا الجو الكئيب يسود الفيلم كله.

كل الضغط الجاثم على هذه العائلة يقع على عاتق إدموند الصغير، الذي ترسله العائلة ليتجول في الشوارع ليبيع أي ممتلكات متبقية لديهم مقابل بضعة ماركات. يُطلب منه الحصول على 300 مارك على الأقل مقابل ميزان تمتلكه العائلة. لكن رجلا أكبر سنا منه يخدعه بسهولة ويستغل جهله وسذاجته، ثم يركب سيارة أنيقة. في مثل تلك الأوقات العصيبة، يزداد القوي قوة والضعيف ضعفا.

ثم يصادف إدموند رجلا مريبا للغاية، السيد هينينغ، الذي يستغل هذا الطفل أكثر. يغري إدموند بالتظاهر بأنه صديقه، ويداعب الصبي المسكين ويضغط عليه بينما يخبره أنه لم يعد يعمل مدرسا "لأنني أنا والسلطات لم نعد نتفق".

اتضح أنه كان، وما يزال، نازيا. يتحدث إلى رجل يجرف الأنقاض، فيشتكي من أن هذا "عمل استعباد"، قائلا: "في السابق، كنا رجالا. كنا اشتراكيين وطنيين. والآن نحن مجرد نازيين"، وهو ما عبر هينينغ عن موافقته عليه.

وعلى عكس فيلم "روما، مدينة مفتوحة"، الذي يسوده تفاؤل بالنضال الجماعي من أجل قضية عظيمة، فإن فيلم "ألمانيا، السنة صفر" كئيب بشكل لا هوادة فيه.

يسود الفيلم جو من صراع البقاء للأقوى، ومن يسقط تدوسه الأقدام. في الواقع، تقول إحدى الشخصيات: "لا أؤمن بمساعدة الغرباء. على كل واحد أن يساعد نفسه بنفسه هذه الأيام".

الجميع ينهبون بعضهم البعض، واللغة مسيئة ووقحة: يصف أحدهم فتاة بأنها "فراش يوزع السجائر". ويلخص الاستغلالي هينينغ هذا قائلا لإدموند: "يجب على المرء أن يتحلى بالشجاعة لترك الضعيف

يموت"، مع عواقب مأساوية ومرعبة.

تسببت تلك المستويات من اليأس في إثارة مخاوف الإمبرياليين أنفسهم في نهاية المطاف. كانوا يخشون أن يؤدي استمرار الوضع على ذلك النحو إلى انفلات ألمانيا المحتلة من يد الغرب وسقوطها في يد الاتحاد السوفياتي، لتليها بقية أوروبا. لذلك، ففي أبريل 1948، وقبيل إصدار فيلم "ألمانيا، السنة صفر"، وقع الرئيس ترومان على "خطة مارشال" لتصبح قانونا، والتي قلبت تماما سياسة الحلفاء تجاه ألمانيا المحتلة، حيث خصصت مليارات الدولارات للمساعدة على إعادة بناء اقتصادها.

لذلك فإن فيلم روسيليني يجسد نقطة تحول تاريخية مهمة، بين نهاية نظام عالمي وبداية نظام جديد، مع كل نفاق الإمبريالية ووحشيتها.

الرجل الثالث

يعتبر فيلم "الرجل الثالث" (The Third Man)، الذي تم تصويره عام 1948 وعُرض عام 1949، أعظم فيلم بريطاني على الإطلاق. تدور أحداثه في فيينا بعد الحرب، وقد كتبه الروائي الشهير غراهام غرين، وأخرجه كارول ريد.

وعلى الرغم من أنه لا يُعتبر فيلما "واقعيا جديدا" بالمعنى الحرفي للكلمة، فمن المؤكد أنه لم يكن ليرى النور، على الأقل بالشكل الذي هو عليه، لولا فيلم "روما، مدينة مفتوحة" لروسيليني. فقد ألهم ذلك الفيلم منتج فيلم "الرجل الثالث"، ألكسندر كوردا، الذي أوضح قائلا: «إن التصوير في المواقع، واستخدام ممثلين غير محترفين، وتسخير إيقاعات روما الطبيعية، منح الأفلام الإيطالية طابعا مباشرا وشخصية صادقة»[4]. ولذلك، أُرسل غرين في رحلة إلى فيينا وروما في فبراير 1948 لإجراء البحث.

ربما يكون المزاج الكلبي والكئيب والانتهازي الذي عكسه فيلم "ألمانيا، العام صفر"، أكثر وضوحا في فيلم كارول ريد الكلاسيكي لما بعد الحرب. وعلى الرغم من أنه أقل شبها بالواقعية وأكثر تركيزا على الأسلوب، فإنه ما يزال يبدو وكأنه نافذة صادقة على زمن منسي تم تصويره كما كان في فيينا عام 1948.

بعد الحرب احتل الحلفاء فيينا تماما كما حدث مع برلين، لكن فقط حتى سنة 1955. فقد عقدت الولايات المتحدة صفقة مع الطبقة السائدة النمساوية لتقديم البلاد على أنها أول ضحايا النازيين. لكن فيلم "الرجل الثالث" يكذّب ذلك، إذ لا يبدو أن النمساويين يشعرون بالتحرر والامتنان، بل يبدو عليهم الاستياء والصدمة والريبة.

في لحظة معينة تصرخ صاحبة شقة تخضع للتفتيش، من قبل القوات البريطانية، في وجههم باللغة الألمانية. وعندما سُئلت عما تقوله، قالت إحدى الشخصيات النمساوية: "إنها تشتكي فقط من الطريقة التي يتصرفون بها في منزلها".

يبدو أن هذا يُلخص القصة بأكملها: على النمساويين المهزومين والمُعدمين أن يتحملوا "في منزلهم" إذلال الأجانب الوقحين والمستغِلين.

يُفتتح الفيلم برواية للمخرج، الذي يمهد للقصة قائلا:

«لم أكن أعرف فيينا قبل الحرب، بسحرها وجاذبيتها. تعرفت عليها خلال الفترة الكلاسيكية للسوق السوداء. كنا نوفر أي شيء إذا رغب الناس فيه بما يكفي وكان لديهم المال الكافي للدفع».

ومثلها مثل برلين آنذاك، تصوَّر فيينا على أنها مدينة مليئة بالأنقاض والمباني الفخمة المهدمة.

كان هناك نقص حاد في الغذاء. كان

الملصق السينمائي الأمريكي لفيلم "الرجل الثالث"

لقطة من فيلم "الرجل الثالث"

حصاد البطاطس سنة 1947 (قبل سنة واحدة من تصوير الفيلم) أقل بـ30% من مستويات ما قبل الحرب، ولم تتمكن الحكومة من توزيع الحصص الغذائية. شهدت البلاد العديد من أعمال الشغب والإضرابات بسبب نقص الغذاء. فبدأت أمريكا في تقديم مساعدات غذائية طارئة خوفا من أن يؤدي ذلك النقص إلى سقوط البلد في أيدي الاتحاد السوفياتي. وعندما سُحبت تلك المساعدات عام 1950، هزت البلد سلسلة من الإضرابات العامة.

الرأسماليون الذين تعاونوا مع النازيين فروا تاركين مصانعهم وراءهم. وحتى عام 1950 تقريبا، أُعيد بناء العديد من المصانع في النمسا وتشغيلها تحت سيطرة العمال في الواقع.

نسقت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية مع الجناح اليميني للنقابات العمالية النمساوية، الذي ضمن هزيمة موجة الإضراب العام لسنة 1950. وفي أعقاب تلك الهزيمة نظمت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية مجموعات من البلطجية لتحطيم سيطرة العمال على المصانع، التي أُعيدت لاحقا إلى أيدي الرأسماليين. وأُخمدت الإمكانيات الثورية للوضع الذي أعقب الحرب.

كان ذلك قبل أن تبدأ الحرب الباردة فعليا. سادت في النمسا حالة من الارتياب الشديد بشأن المسار الذي يتجه إليه المجتمع. من سيكون السيد: العمال أم الرأسماليون؟ ومن هي القوة التي ستقرر مصير النمسا: الولايات المتحدة الأمريكية أم الاتحاد السوفياتي؟

إلى جانب ذلك كان هناك برنامج لاجتثاث النازية، وإن كان قد تم تخريبه بترسيخ الأسطورة القائلة بأن النمساويين كانوا أول ضحايا النازية. كان لدى شريحةٍ كبيرة من البرجوازية النمساوية ماضٍ تفضل نسيانه، ولم تكن متأكدة تماما من كيفية التعامل مع جرائمها السابقة، أو ارتباطها بتلك الجرائم، إذا ما انكشف أمرها. حتى أن أعدادا كبيرة من أصحاب المشاريع الصغيرة كانوا قد بنوا ممتلكاتهم من خلال عمليات سطوٍ رعاها النازيون، لأن مشاريعهم كانت مملوكةً ليهود. لم يكن هؤلاء الأشخاص متأكدين مما إذا كانوا سيحتفظون بتلك الممتلكات التي اكتسبوها بتلك الطريقة.

لهذه الأسباب كلها، ساد جو من الكلبية والخداع والانتهازية. كان الاتجاه العام هو الاستعداد للتكيف مع أيٍ من

المسارات التي قد يتجه نحوها الوضع.

غموض

هذا هو المكان المثالي لرواية غامضة، وهو بالضبط ما يمثله فيلم الرجل الثالث. تدور أحداث القصة حول رجلٍ أمريكي، هولي مارتينز، يأتي إلى فيينا بعد أن وعده صديقه، هاري لايمز، الذي انتقل إلى هناك، بعمل. عند وصوله، وجد صديقه قد لقي حتفه في حادث مروري.

تبدو بعض تفاصيل ذلك الحادث غريبة نوعا ما، لذلك قرر هولي البقاء وإجراء تحقيقه الخاص. من المثير للريبة عدد الأشخاص الذين كانوا شركاء لهاري والذين يبدو أنهم شهدوا الحادث. وقد قام اثنان من هؤلاء الشركاء بالمسارعة إلى نقل جثة هاري فورا، وهو أمر غريب. والأسوأ من ذلك هو أن كل شخص يروي له قصة مختلفة عن كيفية مقتل صديقه، بعضهم يقول إنه توفي على الفور، والبعض الآخر يقول إنه تحدث إليهم لفترة بعد الحادث. ويخبره البعض أن هناك "رجلا ثالثا" غامضا متورطا في نقل الجثة.

ثم قام قائد شرطة بريطاني بتحطيم الصورة التي لدى هولي عن صديقه، بأن أكد له على أنه كان مُبتزا سيء السمعة. كانت مهمته سرقة البنسلين، الذي كان شحيحا للغاية، وخلطه بمواد أخرى، وبيعه مرة أخرى للمحتاجين. وهو ما أدى إلى حدوث وفيات كثيرة، وخاصة بين الأطفال.

هذا ليس مجرد تصوير مجازي للفقر العام والخصاص الحاد الذي واجهه النمساويون بعد الحرب. فقد حدث ذلك بالضبط تقريبا.

كان الأمريكيون هم من طوروا البنسلين خلال الحرب، ولذلك فقد كانوا يسيطرون بالفعل على إمدادات النمسا منه. وفي سنة 1946، منحت أمريكا النمسا حق الوصول إليه، لكن بما يكفي لعشرين مريضا فقط! ووفقا لسوزان كريسيا ماكمانوس فقد: «ازدهرت السوق السوداء. وأفادت الصحف بين عامي 1945 و1949 عن حدوث سرقات من المستشفيات الأمريكية، وعمليات تزوير، وخلط للدواء حتى بمواد خطرة، وعمليات ابتزاز»[5]. كانت الزجاجة الواحدة منه تباع بعشرة آلاف دولار.

من المثير للاهتمام أن الخصم الشرير المسؤول عن عمليات الاحتيال في السوق السوداء يُصور كأمريكي، وليس نمساويا أو ألمانيا أو روسيا. وهذا يعني أن المحتلين الجدد وأسياد أوروبا الجدد ليسوا محررين في الواقع، بل محتالون رأسماليون يتلاعبون بمصير أوروبا التي كانت محطمة.

ويمكن النظر إلى لغز وفاة هاري لايمز على أنه يشير إلى أمر لا يصدق بشأن الإبادة المزعومة للنازية على يد الولايات المتحدة. لقد اتضح أن برنامجها لاجتثاث النازية كان محدودا للغاية، إذ قررت الولايات المتحدة أنها بحاجة إلى دمج البيروقراطيين والجنرالات النازيين في الدولة باعتبارهم حصناً منيعاً ضد الشيوعية.

يتساءل الفيلم: ما الذي حدث حقا لهاري لايمز الشرير وعصابته الخبيثة، تماما كما قد نتساءل: أين ذهب هؤلاء النازيون السابقون ومكاسبهم غير المشروعة؟

يستخدم المصور السينمائي، روبرت كراسكر، ببراعة الظلال الدرامية التي تُلقيها مصابيح الشوارع الليلية للتأكيد على ذلك الشعور بالغموض، وبالأشياء الخفية، وربما للإشارة إلى عدم اليقين واللاأخلاقية الكلية للشخصيات الرئيسية. هذا لافت للنظر بشكل خاص خلال مشهدي مطاردة، حيث لا يمكن رؤية الخصوم إلا من خلال ظلالهم الضخمة المهيبة التي تنعكس على الجدران، على غرار فيلم الرعب الشهير لمصاصي الدماء "نوسفيراتو" (Nosferatu) الصادر عام 1922 لمورناو.

ينتهي مشهد المطاردة في مجاري فيينا، أو "قنوات الكوليرا"، التي بُنيت في ثلاثينيات القرن التاسع عشر. وهناك لا يمكن لأحد أن يتأكد من وجهته، وما إذا كانوا ما يزالون في المطاردة أم لا، أو أنهم فقدوا خصمهم في إحدى تجاويف المجاري الكثيرة.

لمحة من التاريخ الحقيقي

تُجسد هذه الأفلام الرائعة الجوانب المتناقضة للحظة حاسمة، لكنها منسية إلى حد كبير، في التاريخ الأوروبي.

ما تُظهره هذه الأفلام هو (في حالة روما، المدينة المفتوحة) أن الذين واجهوا النازيين بنجاح هم الأنصار والناس العاديين، والذين كان الكثير منهم شيوعيين، وكانت لديهم القدرة على تحويل هزيمة النازيين إلى ثورة عظيمة تقضي على الرأسمالية في جميع أنحاء أوروبا.

كما تُظهر لنا الدمار شبه الكامل الذي جلبه هتلر والطبقة السائدة الألمانية لألمانيا والنمسا، وتشير إلى أن هيمنة الإمبريالية الأمريكية الجديدة على أوروبا الغربية لم تكن ذات صلة بالحرية، بل كانت وسيلةً لهيمنة الولايات المتحدة على السوق العالمية.

في أيامنا هذه لم تعد تُصنع أفلام بهذه الدرجة من الواقعية والارتباط بأحداث تاريخية عظمى. ونادرا، إن لم نقل أبدا، ما تصور الأفلام اليوم نضالات الطبقة العاملة وتنظيمها، مثلما تفعل روائع روسيليني الواقعية الجديدة.

ومع ذلك فإن أوروبا تقف اليوم على شفا أزمة ثورية جديدة. حكوماتها وأحزابها مكروهة، ومع ذلك فالمطلوب هو المزيد من التقشف. والجيل الجديد بلا صوت، لكنه سيجد صوتا له في سياق الأحداث الثورية الوشيكة، وبالارتباط مع ذلك سيبرز جيل جديد من صانعي الأفلام الجريئين.

المراجع على موقعنا
marxist.com/idom-49-references
أو قم بمسح رمز QR

Wellred Books

wellred-books.com